# الفصل الثاني

# خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

obeikandl.com

obeikandl.com

## أعمال عمر رضي الله عنه في خلافته:

### ١ ـ عزله خالد بن الوليد وتولية أبي عبيدة:

أوّل عمل قام به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، عزل خالد رضي الله عنه، فكان أول كتاب كتبه ـ في هذا الصّدد ـ إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، بتوليته إمارة الجيوش في الشام، وعزل خالد، كما أمره بنزع عمامة خالد، وأن يقاسمه ماله، ففعل أبو عبيدة.

### الخلاف المزعوم بين عمر وخالد رضي الله عنهما :

لقد دار حول هذا العزل لغط كثير، ووجد فيه المغرضون أرضاً خِصبة لبثّ شبهاتهم وأضاليلهم، وللحطّ من شأن خالد، فنسجوا من حوله وحول عمر الأكاذيب، فقالوا: إنه عزله؛ لأنه كان عليه ساخطاً في خلافة أبي بكر رضي الله عنه لوقعته بمالك بن نويرة، فلما وجدوا أن هذا المبرّر لم يكن كافياً لإقناع القارئ، قالوا إن ثمّة خلافاً كان بين عمر وخالد، يعود إلى أيام الصّبا في الجاهلية، حيث ذكر ابن عساكر[١] وعلي بن برهان الدين الحلبي[٢]، أن عمر وخالداً تصارعا وهما غلامان، فكسر خالد ساق عمر، فظلّ يحمل له في نفسه ضغينة وحقداً وكراهية، حتى إذا ما أصبح خليفة للمسلمين، رأى الفرصة سانحة للانتقام من

(١) ابن عساكر: (٤٩٩ ـ ٥٧١ هـ = ١١٠٥ ـ ١١٧٦م) علي بن الحسن بن هبة الله، الدمشقي، المؤرخ الحافظ، الرّحالة، كان محدّث الديار الشامية، مولده ووفاته في دمشق. الزركلي: الأعلام، ٤/ ٢٧٣.

(٢) علي بن برهان الدين الحلبي: (٩٧٥ ـ ١٠٤٤ هـ = ١٥٦٧ ـ ١٦٣٥م): علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين بن برهان الدين: مؤرخ، أديب، أصله من حلب، مولده ووفاته بمصر. المرجع نفسه، ٤/ ٢٥١.

خالد، والثأر لنفسه، فأمر بعزله من إمارة الجيوش[1].

وتابعهما فيليب حتّي[2] وغيره من المغرضين على ذلك، ولكنه يضيف بأن عمر وخالداً كانا فاقدي الصبر والتروّي، ويزعم أن أبا بكر كان على علم بأن هذين الرجلين العظيمين لا يكنان المحبة لبعضهما، وأن الذي دفع خالداً إلى الدخول في الإسلام هو الرغبة في تحقيق النصر والمجد[3].

ويقول في مقدمة كتابه (سيف الله خالد): «إن جزءاً من المادة الموجودة في هذا الكتاب غير معروفة لعامة الناس، لكن كل حادثة، وكلّ واقعة هي صحيحة تاريخياً»[4].

ولكن أنّى لها الصحة، وهي مجهولة الهوية والمصدر، مقطوعة النسب، ولا سيما أنه لا يسند رواياته ولا يبيّن مصادرها التي لا أساس لها إلا في عقليته الاستشراقية الخبيثة، المعادية للإسلام وأهله؟!

إلا أن مثل هذه الروايات تحمل في طياتها ما يبطلها من أساسها، وتدلّ على أن الذي وضعها جاهل بالإسلام جهلاً تاماً، ولا يعرف أثره في أتباعه، ولم يرد أن يعترف بأن تعاليم الإسلام قد تفاعلت في نفوس العرب، وأخذت أوضاعها السليمة في قلوبهم، فقد وجدنا الجفاة من الأعراب الذين وأدوا بناتهم واعتزوا بسفك الدماء، قد صاروا الخشّع الركّع الذين يبتغون فضلاً من الله ورضواناً.

والإسلام فعل في نفس عمر ما لم يفعله في غيره، فبعد أن كان من الجفاة القساة، الذين يرتجف الناس فرقاً منه، أصبح الخليفة الذي تردّه امرأة في مجمع الخلق، فيقول بملء فيه: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

وكان المسلم يلقى قاتل أبيه أو أخيه في الجاهلية بعد إسلامه، فلا يتأثر

---

(١) العقاد: عبقرية خالد ص ١٥٨.

(٢) فيليب حتي: (١٨٨٦ ـ ١٩٧٨ م): مؤرخ لبناني، ولد في قرية شملان في جبل لبنان، نصراني، لم تخل مؤلفاته من التعصب للنصرانية، الموسوعة العربية العالمية: ١٧/ ٧٢٢.

(٣) فيليب حتي: سيف الله خالد ١/ ١٤ و١٩.

(٤) المرجع نفسه: ١/ ١٤.

لذلك، بل لقد كان المسلم يقتل أباه بيده، بسبب كفره وقتاله للمسلمين، فكيف تبقى حادثة تافهة ـ بين غلامين في طفولتهما إن صحت ـ تحتفظ بها ذاكرة عمر بن الخطاب، بعد أن أصبح وخالد بن الوليد من أعلام الإسلام، فتنبثق عنها هذه الضغينة التي حملت عمر على عزل خالد؟![1].

وقالوا: إن سبب غضب عمر على خالد، يرجع إلى الدور الذي قام به خالد في معركة أحد، حيث استطاع أن يحوّل الهزيمة التي مني بها المشركون إلى النصر، بعد التفافه بخيوله على المسلمين الذين كانوا منهمكين في التقاط الغنائم.

وهذا الزعم أيضاً لا يقوى على التحقيق؛ لأن الإسلام يجبّ ما قبله، ولا إثم على المرء فيما اقترفت يداه قبل إسلامه، علماً أن إسلام خالد، كان يمثّل مكسباً عظيماً للإسلام والمسلمين، ولا سيما أنه كان يعادل عمر في الفروسية والمكانة.

والذي يدعو إلى الدهشة أنهما كانا شبيهين في الخلقة، والصوت، بحيث كان ضعاف النظر يخلطون بينهما من قريب، ولا يميزونهما بالرّؤية بسماع الصوت المنخفض[2].

وكانا كذلك نظيرين في الشجاعة وقوّة البأس، ومن الطبيعي عند أهل الشيم والأخلاق، أن تكون هذه الصفات المشتركة عامل ودّ وألفة وتقدير واحترام؛ وكان هذا الأمر من دواعي إعجاب الرجلين بعضهما ببعض، فكيف إذا كان بينهما ما هو أقوى من كل هذه العوامل؟! ألا وهو العقيدة الإسلامية، التي لا تعدلها وشيجة على الإطلاق.

وكيف إذا ما ثبت أن أمير المؤمنين عمر كان يثني على خالد؟!

من هذا القبيل ما روي من أن عمر لما علم ما بخالد من الشدّة في مرض موته، ـ وكان راجعاً من الحج ـ فطوى ثلاثاً في ليلة واحدة، إلاّ أنه لم يدركه حياً،

---

(١) إبراهيم شعوط: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص ١٢٤، والعقاد: عبقرية خالد بن الوليد ص ١٥٨، وما بعدها بتصرف.

(٢) العقاد: عبقرية خالد، ص ٣٩، وقد أكد ذلك ابن حجر في الإصابة، ١/ ٤١٥.

فأدركه حيث قضى، فرقّ عليه واسترجع وجلس ببابه حتّى جهّز[1].

وقال فيه: ما قامت النساء عن مثل خالد[2].

وقال له حين عزله عن قيادة الجيوش: إنك عليّ لكريم، وإنك عندي لعزيز، ولم يصل إليك مني أمر تكرهه بعد ذلك[3].

ولولا خشية الإطالة لاستعرضت عشرات الروايات في هذا الصدد.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن خالد بن الوليد، كان يمتاز بشخصية قوية، وذكاء خارق، وكان يحبّ الاعتماد على نفسه في كثير من مواقف المواجهة، خلال الغزوات التي كان يقودها، من منطلق الحرص على تحقيق النصر، واقتناص الفرص المناسبة حين سنوحها.

ومن أمثلة ذلك أنه حين عهد إليه أبو بكر بالمسير إلى اليمامة بعد حرب أسد وغطفان، توقفت الأنصار، وقال قائدهم ثابت بن قيس بن شمّاس: ما عهد إلينا ذلك، وما نحن بسائرين، وليست بنا قوّة، وقد كلّ المسلمون وعجف كراعهم، فقال لهم خالد: أما أنا فلست بمستكره أحداً منكم، فإن شئتم فسيروا، وإن شئتم فأقيموا، قد عهد إليّ وأنا الأمير، ولو لم يأتِ كتاب بما رأيته فرصة وكنت إن أعلمته [الخليفة]، فاتتني، لم أُعْلِمه، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد إلينا، لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا، ثم نعمل به.. الخ.

ويبدو أن هذه الرواية تستمد عناصرها من كلمة خالد: لو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة وكنت أنا أعلمته [الخليفة] فاتتني...

وهذه من مواهب خالد بن الوليد، ومن عبقرياته التي صنعت أمجاده في التاريخ، لأنه لم تشأ له عبقريته أن يقف في سياسة جنده وقيادة جيشه عند حرفيّة جامدة فيما يلقى إليه من الأوامر؛ لأن القائد في ميدانه، يجب أن يكون بعيد

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ١١٦.

(٢) المرجع نفسه، ٧/ ١١٧.

(٣) المرجع نفسه، ٧/ ١١٥.

النظر إذا سنحت له الفرصة لم يدعها تفلت من يده، ولو لم يكن في ذلك من الخليفة كتاب أو عهد، إذ أنه لو وقف في كل أمر ينتظر التوجيه من الخليفة البعيد عن الوضع الذي يعيش فيه القائد، وطرق المواصلات على ما كانت عليه من بطء، لو قيّد نفسه بهذا القيد، وأوقف كلّ عملياته حتى يستشير الخليفة وتأتيه أوامره لضاعت من يده فرص النصر كلها، وبطل القول المأثور: إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب.

فمن تصرّف خالد هذا، انبثق إعجاب أبي بكر به، وقويت ثقته فيه، إلاّ أن خصوم الرجلين قالوا ـ بناء على ما بلغهم من أسلوب خالد في الاعتماد على نفسه فيما يجد أمامه من الأمور ـ كان في خالد تقدّم على رأي أبي بكر، فلم يعجب ذلك عمر.. وكان خالد لا يرفع حساباً لأبي بكر، ويفعل ما يريد من أشياء لا يراها أبو بكر، وكان يغفر له ذلك، بينما كان عمر يغضب لذلك.

وللدلالة على ذلك يستعرض الدكتور إبراهيم شعوط رواية نقلها ابن حجر في الإصابة عن الإمام مالك بن أنس، مفادها أن عمر قال لأبي بكر: اكتب إلى خالد: لا يعطي شيئاً إلا بأمرك، فكتب إليه أبو بكر بذلك.

فأجاب خالد بقوله: إما أن تدعني وعملي، وإلاّ فشأنك بعملك. فأشار عمر على أبي بكر بعزله، فقال له أبو بكر: فمن يجزئ جزاء خالد؟ قال عمر: أنا، فقال أبو بكر: فأنت، وتجهّز عمر حتى أنيخ الظهر في الدار، فمشى أصحاب النبي إلى أبي بكر وقالوا: ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه، ومالك عزلت خالداً وقد كفاك؟ فقال: ما أصنع؟ قالوا: تعزم على عمر فيبقى، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله، ففعل[1].

فهذه الرواية فضلاً عما فيها من تجاهل حقيقة معاملة خالد لأبي بكر، فإن أعراض الاختلاف والاضطراب بادية في تركيبها وتأليفها، لأنها تظهر أبا بكر في صورة الرجل الذي لا رأي له، فإذا قال له عمر: اعزل خالداً، عزله، وإذا قال له

(١) ابن حجر: الإصابة، ١/ ٤١٥.

آخرون: أبقِ خالداً، أبقاه في الوقت نفسه.

ونسي واضعوا هذه الملفقات، أن أبا بكر صاحب رأي حازم، جعله يقف وحده في الإصرار على حرب المرتدين، رغم معارضة عمر ومن معه، وما زال بهم حتى حملهم على رأيه، فماذا نقول لأمثال هؤلاء؟![1].

## عزل خالد عن قيادة الجيش دوافعه وأسبابه :

ثمّة ملاحظة يمكن للباحث المنصف أن يستشفها من خلال القراءة الأولى لأكثر الروايات التي تتصل بهذه القضية، وهي تمثل الحلقة المفقودة في البحث، والتي لم يهتد أكثر الباحثين الذين أدلوا بدلائهم في هذه المسألة؛ فخالد هو الذي عزل نفسه؛ وإليك التفاصيل التي لن يرفضها الباحث عن الحقيقة، إلا إذا أراد ليّ أعناق النصوص، والابتعاد عن المنهجية والموضوعية.

وقد حدث العزل على مرحلتين: الأولى من القيادة العليا للجيوش مع بقائه في الميدان مع أبي عبيدة، وهذه كانت برغبة خالد ورضاه.

وتفصيل ذلك أن السياسة التي كان يتبعها أبو بكر مع عماله، تتسّم بالاستقلال بالرأي وترك حرية التصرف لهم، فيما تحت أيديهم من عمل الدولة وأموالها، فلما تولّى عمر، نهج نهجاً مختلفاً مع الولاة والعمال، فكان يحدّد لأمرائه وولاته طريقة سيرهم في حكم ولاياتهم، ويحتّم عليهم أن يرجعوا إليه في كلّ صغيرة وكبيرة، ثم يأمر هو بما يراه، وكان من الطبيعي أن ينزل على هذه السياسة بعض العمال، ويرفض النزول عندها آخرون، وكان من الذين رفضوا خالد بن الوليد ، فعزله عمر.

روى ابن حجر عن مالك بن أنس، أن عمر لما ولي الخلافة، كتب إلى خالد: ألا تعطي شاة و لا بعيراً إلا بأمري، فكتب إليه خالد ما كتب لأبي بكر: إما أن تدعني وعملي، وإلاّ فشأنك بعملك، فعزله ثم كان يدعوه إلى العمل فيأبى

(١) إبراهيم شعوط: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ بتصرف.

إلا أن يخليه يفعل ما يشاء، فيأبى عمر[1].

وكان عزله بعد موقعة اليرموك، وانتصار المسلمين على الروم، واستقبل خالد قرار عزله من القيادة بكل رضا، وسلّم مهامه للقائد الجديد أبي عبيدة، وفي الوقت الذي وضع فيه خالد نفسه تحت إمرة أبي عبيدة، كان الأخير لا يخطو خطوة واحدة إلا بمشورته، كما كان عمر حريصاً كل الحرص على أن يقف أبو عبيدة من خالد موقف التقدير لعبقريته، فأمره بأن يحتفظ بخالد معه، ولا يسمح له بالذهاب إلى العراق، وقال لأبي عبيدة: لا غنى بك عنه.

ممّا تقدم ندرك بأن السياسة التي اعتمدها عمر، وضعت خالد بن الوليد في موضع الاختيار ليحدد مكانه من القيادة، فإذا قبل شرط عمر، فهو القائد العام، وإلّا فالعزل هو النتيجة الطبيعية لرفضه.

وبالجملة فإن عزل خالد في المرّة الأولى لم يكن عن شك فيه، ولا عن ضغائن جاهلية، ولا عن اتهامه بانتهاك حرمات الشريعة، ولا عن طعن في تقوى وعدل خالد، ولكن كان هناك منهجان لرجلين عظيمين، وشخصيتين قويتين، كان كل منهما يرى تطبيق منهجه، فإذا كان لا بد لأحدهما أن يتنحّى، فلا بد أن يتنحّى أمير الجيوش لأمير المؤمنين، من غير عناد ولا حقد ولا ضغينة[2].

## عزل خالد في المرّة الثانية :

عرفنا مما تقدم أن خالداً هو الذي اعتزل قيادة الجيوش في المرّة الأولى، لكن عزله في المرة الثانية كان عزلاً ومحاكمة على حدّ تعبير الدكتور إبراهيم شعوط، وذلك أن خالداً. وهو يقاتل في غمار الجند. نسي طبيعة عمر في حرصه الشديد على الحساب والمراجعة في أمر المال والمتاع.

---

(١) ابن حجر: الإصابة، ١/ ٤١٥، انظر أيضاً عبقرية خالد للعقاد، ص ١٥٩. وهذه الرواية تدل دلالة واضحة على أن عزل خالد لم يكن بسبب قتله لمالك بن نويرة وزواجه من امرأته كما ذكر المغرضون.

(٢) انظر: أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص ١٣٢، وعبقرية خالد بن الوليد ص ١٥٧ . ١٥٨.

وكان خالد قد خرج . هو وعياض بن غنم ﷺ . إلى دروب الروم ومداخلها ، فغنموا غنائم كثيرة، فلما عادوا بها ، انتجعهم طلاب الإحسان، وروّاد الجود، فأعطى خالد بسخاء، وكان ممّن غمره خالد بعطائه الأشعث بن قيس الكندي، حيث أعطاه عشرة آلاف دينار، فبلغ أمر هذا العطاء عمر فأعظمه ورأى فيه سياسة خالد التي عزله من أجلها عن إمارة الجيوش، وهي حرية التصرف في المال، والاندفاع بالمسلمين في مغامرات حربية من غير أن يستأذن الخليفة فيما يفعل.

ويتبين لعمر إصرار خالد على أن يستقلّ بنفسه في تصرفاته، كما لفت نظره إسراف خالد في العطايا والهبات.

وهذه السياسة . كما ظهر لنا بشكل جليّ . لا تتفق مع سياسة أمير المؤمنين عمر، الذي كان يناقش عماله الحساب في كل صغيرة وكبيرة، كما كان يبدي حرصاً شديداً على أرواح المسلمين، ويرفض دفعهم إلى مثل هذه المغامرات التي كان يدفعهم إليها خالد.

وينبغي ألا يغيب عن بالنا أن عزل خالد . وهو في قمة التقدير من قبل الجند وعامة المسلمين، ينطوي على حكمة بالغة، ودرس عمليّ في لزوم الطاعة لوليّ أمر المسلمين.

ولما كان عمر مطمئناً إلى قوة إيمان خالد، وأن من أسباب انتصاره في كافة المعارك، إنما هو انتصاره على نفسه أولاً في معارك الحياة، فأراد أن يضرب به المثل الأعلى في طاعة وليّ الأمر، فيتخذ منه . وهو في أوج انتصاراته . وسيلة إيضاح لدرس يلقيه أمير المؤمنين على كافة القواد والولاة.

فأرسل إلى أبي عبيدة يأمره أن يقيم خالداً، ويعقله بعمامته، وينزع قلنسوته، حتى يعلمه من أين أجاز الأشعث؟ هل من مال الله أم من ماله؟ أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنه من إصابة أصابها، فقد أقرّ بالخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف، ثمّ أمر أبا عبيدة أن يعزله على أيّة حال، وأن يضم إليه عمله، وأن يقاسمه ماله، ففعل أبو عبيدة ما أمره به عمر، دون أن يراجعه خالد في شيء مما فعل .

ومن الأسباب الرئيسة في عزل خالد، أن عمر كان يخشى افتتان المسلمين بالشخصيات التي انعقد النصر بألويتها في المعارك الكبرى، كما كان يخشى أيضاً على هذه الصفوة من صحابة رسول الله ﷺ أن يدخل الغرور إلى نفوسهم، وهم القواد العظام، من جهة إطراء المسلمين إيّاهم، وشدّة تعلقهم بهم، واطمئنانهم إلى وجودهم في الملمّات.

وقد كشف عمر عن مكنون سريرته في هذه الناحية بالنسبة لكل من خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، اللذين اقترن اسماهما بفتوح الشام والعراق، فقال عمر قبل توليه الخلافة: والله لئن صيّر الله هذا الأمر لي، لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق، وخالد بن الوليد عن الشام، حتى يعلما أن الله هو الذي نصر الدّين لا بنصرهما، وأن القوّة لله جميعاً[1].

وقال: «إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما».

وبالجملة فإن خالداً كان يعرف وجه المصلحة في عزله، فكان. وهو الذي تربّى على عين النبي ﷺ. عند حسن ظنّ المسلمين به، فلم يسمح للضغينة أن تأكل قلبه على أمير المؤمنين عمر.

وليس أدلّ على ذلك من المواقف الإيمانية الرائعة التي سجلها خالد عند موته، وهي تدلّ على عظيم محبته واحترامه لعمر.

من ذلك ما رواه ابن عساكر، قال: دخل أبو الدرداء على خالد في مرض موته، فقال له خالد: يا أبا الدرداء، لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها. فقال أبو الدرداء: وأنا. والله. أرى ذلك، فقال خالد: قد وجدت عليه في نفسي في أمور، لما تدبرتها في مرضي هذا. وحضرني من الله حاضر. عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل.

كنت وجدت عليه حين بعث عليّ من يقاسمني مالي، حتى أخذ فرد نعل

(١) الطبري: تاريخ ٤/٦٨، وابن كثير: البداية والنهاية، ٧/١١٥.

وأخذت فرد نعل، ولكنه فعل بغيري من أهل السابقة، وممن شهد بدراً، وكان يغلظ عليّ، وكانت غلظته على غيري نحواً من غلظته علي.

وكنت أدلّ عليه بقرابتي، فرأيته لا يبالي قريباً، ولا لوم لائم في غير الله، فذلك الذي أذهب عني ما كنت أجد عليه، وكان يكثر عليّ عنده، وما كان ذلك على النظر، فقد كنت في حربٍ ومكابدة، وكنت شاهداً، وكان غائباً، فكنت أعطي على ذلك، فخالفه ذلك من أمري.

وعندما التقى بأمير المؤمنين بعد أن عزله عن إمارة الجيوش، وقاسمه ماله، قال له خالد: لقد شكوتك إلى المسلمين، وبالله إنك في أمري غير مجمل يا عمر. فسأله الفاروق: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسهمان، ما زاد عن الستين ألفاً فلك، فزادت عشرون ألفاً فضمها إلى بيت المال. ثم قال له: يا خالد، والله إنك عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد على شيء.

وأرسل إلى الأمصار يأمر الولاة أن يعلنوا فيها باسمه: إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا وألاّ يكونوا بعرض فتنة.

وبلغ من شدة تقديره لأمير المؤمنين عمر، أنه. وهو على فراش الموت. أبى إلا أن ينفذ وصيته له بقوله: قد جعلت وصيتي وتركتي وإنفاذ عهدي إلى عمر بن الخطاب[1].

ومن هذه الوصية نصنع أحجاراً نلقمها أفواه المغرضين الذين أرادوا أن يحطوا من منزلة أبطال المسلمين.

---

(١) ابن حجر: الإصابة، ١/ ٤١٥، وابن الأثير: أسد الغابة، ٢/ ٩٦، وابن عبد البر: الاستيعاب، ١/ ٤٠٩.

## ٢ ـ إرساله الجيوش لفتح بلاد الشام:

استأنف أمير المؤمنين عمر ما كان بدأه أبو بكر، ولا جرم أنه كان مهتماً بنشر الدعوة خارج الجزيرة، ولما فرغ خالد من اليرموك، وتسلّم أبو عبيدة إمارة الجند، خرج أبو عبيدة حتى نزل بالصُّفَّر[١] وهو يريد أن يتّبع فلول المنهزمين، فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفِحل[٢]، وأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص، فلا يدري أبدمشق يبدأ أم بفحل، فكتب إلى أمير المؤمنين يستشيره، فكتب إليه يأمره أن يبدأ بدمشق، وأن يشغل أهل فحل بفرقة من الفرسان، فسيّر أبو عبيدة طائفة من الجند إلى فحل فحاصرتها، وسيّر آخرين ليكونوا بين حمص ودمشق، ليمنعوا الأمداد عنها، وآخرين ليكونوا بين دمشق وفلسطين، ثمّ توجّه وعلى مقدّمته خالد بن الوليد إلى دمشق، بعد أن استخلف على فلسطين والأردن عمرو بن العاص.

## حصار دمشق

قدم أبو عبيدة وخالد ﷺ على دمشق، وعليها نسطاس بن نسطوس، وكان هرقل قريباً من حمص، فحصر المسلمون أهلها سبعين ليلة حصاراً شديداً، وقاتلوهم بالزحف والمجانيق، وحاول هرقل أن يغيثهم، فمنعته خيول المسلمين عند حمص. وولد لبطريق دمشق مولود، فصنع طعاماً فأكل القوم وشربوا، وتركوا مواقعهم، ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين، إلا ما كان من خالد، فإنه كان لا يغفل عن مراقبة عدوّه، فاتخذ حبالاً على هيئة السلالم، وأوهاقاً[٣]، ثم نهض هو ومن معه من أهل النجدة وفيهم القعقاع، وقالوا: إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا واقصدوا الباب. فلما وصل خالد وأصحابه إلى السور ألقوا الحبال، فصعد المسلمون، ثمّ انحدر خالد مع أصحابه إلى الباب، فقتلوا الحراس وفتحوه. وارتفع التكبير، ودخل الجيش مكبّراً، وثار أهل المدينة لا يدرون ما

---

(١) وهو مرج الصُّفَّر: موضع بين دمشق والجولان.

(٢) فحل: اسم موضع بالشام كانت فيه وقعة للمسلمين مع الروم.

(٣) الأوهاقُ: جمع الوَهَقُ، وهو حَبْلٌ كالطّول تشدُّ به الإبل والخيل لئلا تندّ وهو الحبل يُرمى في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان. وهو هنا كهيئة الكلاليب تكون في نهاية الحبال.

الحال؟ وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم، فلما رأى الروم ذلك، قصدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح، فقبل منهم، ودخل المدينة من جهته صلحاً فالتقى بخالد في وسطها وقد دخل عنوة، فأجروا ما فتحه خالد عنوة مجرى الصلح، فصارت كلّها صلحاً، فانظر ـ يا رعاك الله ـ إلى عدالة الإسلام، والرحمة التي كان يتمتع بها الفاتحون المسلمون، فأين تصبح دعوى أعداء الإسلام، أن الإسلام انتشر بالسيف؟!

## غزوة فحل

لما فرغ أبو عبيدة من فتح دمشق، أرسل إلى أمير المؤمنين بالفتح، ثمّ استخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان، ففتح سواحلها، (صيدا، وعرقة، وجبيل، وبيروت)، وسير أخاه معاوية لفتح قيسارية ففتحها.

ثم سار أبو عبيدة إلى فحل، وعلى مقدمته خالد، وعلى المجنبتين عمرو بن العاص، وأبو عبيدة، وعلى الخيل ضرار بن الأزور الأسدي، وعلى الرّجالة عياض بن غنم، وعلى الناس شرحبيل بن حسنة، وكان أهل فحل قد قصدوا بيسان[1]، ونزل شرحبيل فحلاً، وحال بينهم وبين الروم أوحالٌ كثيرة تسببت بها المياه التي أجروها لتكون خندقاً حول المدينة، وأقام المسلمون على ذلك ينتظرون كتاب عمر وكانوا قد أخبروه الخبر، فخرج عليهم الروم، ورجوا أن يكونوا على غِرّة، إلا أن المسلمين كانوا بمنتهى الحذر، وكان شرحبيل لا يبيت إلا على تعبئة و لايصبح إلا على تعبئة، فاقتتلوا أشد قتال ليلتهم ويومهم إلى الليل، فظفر بهم المسلمون، وأخذوهم من كل جهة، فلاذوا بالفرار، حيث انتهت بهم الهزيمة إلى الوحل، واستيلاء المسلمين على المدينة.

ثمّ وجه أبو عبيدة جيشين أحدهما بقيادة شرحبيل بن حسنة إلى بيسان، والآخر إلى طبرية[2]، فتم فتح المدينتين على صلح دمشق.

---

(١) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، وهي بين حوران وفلسطين، وهي بلدة وبئة حارّة، أهلها سمر الألوان جعد الشعور، لشدة الحر.

(٢) طبرية: بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي من طرف جبل، وجبل الطور مطلّ عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وكذلك بينها وبين بيت المقدس.

## الوقعة بمرج الروم

سار أبو عبيدة وخالد بمن معهما من فحل، قاصدين حمص، فأرسل هرقل جيشاً بقيادة البطريق توذر، وأمده بجيش آخر بقيادة شنش الرومي، فوقف أبو عبيدة بإزاء توذر ووقف خالد بإزاء شنش، ثم توجّه توذر إلى دمشق، فسار خالد وراءه، وبلغ يزيد بن أبي سفيان أمير دمشق خبر توذر، فاستعد لقتاله، ولم يكد الجيشان يلتحمان، حتى وصلت قوّات خالد، فأخذتهم من الخلف، ولم يفلت منهم إلا الشريد، في الوقت الذي كان فيه أبو عبيدة يلحق الهزيمة بجيش شنش الرومي الذي قتله أبو عبيدة، ولحقت فلول المنهزمين إلى حمص.

## فتح حمص

سار أبو عبيدة على رأس قوّاته إلى حمص، فسلك طريق بعلبك، ففتحها، ولما بلغ هرقل ذلك، أمر بطريق حمص بالمسير إليها، وسار إلى الرَّهَا[1].

ولما وصل أبو عبيدة إلى حمص، وجد أهلها وقد تحصّنوا داخل أسوارها، في انتظار المدد من هرقل، وكان وعدهم بذلك، فأمر أهل الجزيرة بالتجهّز إلى حمص ليمنعوها عن المسلمين، فسيّر سعد بن أبي وقاص السّرايا من العراق إلى هِيْت[2]، وحصروها، وسار بعضهم إلى قَرْقِيسيا[3]، فتفرق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص.

وصبر أهل حمص في حصارهم على أمل أن يرتدّ المسلمون عنهم لشدة البرد، وكانت أقدام الروم تسقط، ولا يسقط للمسلمين إصبع، ثمّ إن المسلمين كبّروا تكبيرة فانهدم كثير من دور حمص، وزلزلت حيطانها فتصدّعت، فكبّروا ثانية فأصابهم أعظم من ذلك، فخرج أهلها إليهم يطلبون الصلح، ولا يعلم

---

(١) الرَّها: مدينة بالجزيرة بين المَوْصل والشام.

(٢) هِيْت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار.

(٣) قَرقِيْسيا: بلد على نهر الخابور بين الخابور والفرات.

المسلمون بما حدث فيهم، فأجابوهم وصالحوهم على صلح دمشق.

ثمّ سار قاصداً حماه فتلقاه أهلها مذعنين، فصالحهم على الجزية، واستمرّ في تقدّمه نحو شَيْزَر[١] والمعرّة[٢] ففتحهما صلحاً، حتى إذا ما وصل إلى اللاذقية فتحها عنوة، ثم أرسل خالداً لفتح قنسرين، فلما نزل الحاضر[٣] زحف إليهم الروم وعليهم ميناس، وكان من أعظم الروم بعد هرقل، فاقتتلوا فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها، وسار خالد حتى نزل قِنّسرين فتحصنوا منه، فقال: «لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا».

فنظروا في أمرهم، ورأوا ما لقي أهل حمص فصالحوهم على صلح حمص، فأبى خالد إلا على خراب المدينة فأخربها، ثم إن خالداً وعياضاً دخلا إلى هرقل من الشام ودخلت جيوش أخرى للمسلمين من جهة الكوفة وقرقيسيا والموصل، فعندئذٍ اضطر هرقل إلى الفرار ولجأ إلى القسطنطينية، فلما أراد المسير من الشام، علا على رابية صغيرة، ثم التفت إلى الشام فقال: السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً، حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليته لا يولد، فما أحلى فعله، وأمرّ فتنته على الروم، ثم سار فدخل القسطنطينية.

أما أبو عبيدة فإنه سار إلى حلب، فتحصن أهلها، ثم طلبوا الصلح والأمان، فصالحهم وأمّنهم، واستمرّ أبو عبيدة في فتوحاته لتلك النواحي، حتى وصل إلى منبج، مروراً بأنطاكية[٤] ومعرّة مصرين وقورُسْ[٥] وتل عزاز، ففتحها، واشترط

---

(١) شَيْزَر: قلعة تشتمل على كورة بالشام، قرب المعرّة، بينها وبين حماه يوم.

(٢) المعَرَّة: معرّة حمص، وهي معرّة النعمان، نسبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري.

(٣) الحاضِر: بُليدة بينها وبين حمص مسيرة يومين.

(٤) أنطاكية: من الثغور الشامية ومن أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء، وعذوبة الماء، وكثرة الفواكه، بينها وبين حلب يوم وليلة.

(٥) قُورس: بالضم ثم السكون، وراء مضمومة وسين مهملة، مدينة أزلية بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب، وهي الآن خراب وبها آثار باقية.

على أهلها أن يخبروا المسلمين بأخبار الروم، وولّى أبو عبيدة على كلّ كورة فتحها عاملاً، وشحن الثغور بالمرابطين، وسار إلى بالس، وبعث جيشاً مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين، فصالحهم على الجزية والجلاء، فجلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة، واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات. وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين، وسيّر جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي، وأمدّه بمالك الأشتر النخعي، فسلكوا درب غِرَاس[1] إلى بلاد الروم، فلقي جمعاً للروم معهم عرب من غسان وتنوخ وإياد، يريدون اللحاق بهرقل، فأوقعوا بهم. وسير جيشاً آخر إلى مَرْعش[2] مع خالد بن الوليد، ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وأخربها.

ثم سار معاوية بن أبي سفيان بأمر من أمير المؤمنين إلى قيسارية، ففتحها بعد أن قتل من أهلها خلقاً كثيراً.

ولما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص، نزل عمرو وشرحبيل على أهل بيسان، فافتتحاها وصالحا أهل الأردن، واجتمع عسكر الروم بغزّة وأجنادين، وفيها قائد من أدهى قادة الروم، اسمه الأرطبون، وكان قد وضع بالرملة وإيلياء (بيت المقدس) جنداً عظيماً، فلما بلغ أمير المؤمنين عمر الخبر قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب. وتتابعت الأمداد من عند عمر إلى عمرو، وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على شيء، ولا تشفيه الرسل، فسار إليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه، وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد، ففطن به الأرطبون، فأمر إنساناً أن يقعد على طريقه ليقتله، وفطن عمرو لفعله، فاحتال عليه، ونجا من القتل، ولما عرف مأخذه ومقتله لقيه فحاربه، وألحق به الهزيمة، وفرّ الأرطبون إلى إيلياء.

---

(١) غِراس: مدينة بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ.

(٢) مَرْعَش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، لها سوران وخندق، وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني، بناه مروان بن محمد الشهير بمروان الحمار.

## فتح إيلياء (بيت المقدس)

لما فرغ أبو عبيدة ﷺ من دمشق، وجّه همته إلى بيت المقدس، أرض الرسل والأنبياء، ومسرى رسول الله ﷺ، فسيّر إليها سبعة جيوش، فكان أول من قدم إليها خالد بن الوليد، فلما أشرف عليها كبّر وكبّر أصحابه، فخرج أهلها مذعورين، وارتقوا الأسوار، فنظروا إلى قلّة المسلمين فاستخفُّوا بهم.

وتتابعت جيوش المسلمين إلى إيلياء، فأقبل يزيد بن أبي سفيان ﷺ في اليوم الثاني، وفي اليوم الثالث شرحبيل بن حسنة ﷺ، حتى أقبل الأمراء السبعة، في سبعة أيام، ليرهبوا العدو، ومكثوا ثلاثة أيام لا يبارزهم أحد، ولا ينظرون رسولاً يأتي إليهم، ولا يكلمهم أحد من أهلها.

ثم إن يزيد بن أبي سفيان دنا من سورهم، ودعاهم. بواسطة ترجمانه. إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه، فعاد إلى إخوته من الأمراء وأخبرهم بجواب القوم، فاتفقوا على أن يكاتبوا أبا عبيدة، فكتب إليهم يأمرهم بالزحف، فاستبشروا بذلك، وباتوا ينتظرون الصباح بفارغ الصبر، للزحف على المدينة، فلما كانت صلاة الفجر قرأ يزيد في صلاته: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة/ ٢١].

وقرأ بها الأمراء، كأنهم على اتفاق، فلما فرغوا من الصلاة تداعوا إلى الزحف على المدينة، فرشقهم أهلها بالنشاب، واستمرّ القتال حتى المساء، ثمّ رجع المسلمون إلى مواقعهم، ولم يزل المسلمون على قتال عدّة أيام، فلما كان اليوم الحادي عشر، أشرفت عليهم راية أبي عبيدة يحملها غلامه سالم، فاستبشر المسلمون بقدومه، وفتّ ذلك في عضد أهل بيت المقدس، وجاء بطرق القدس، واسمه: صفرونيوس، ليرى الأمير القادم، ثم طلب أحد مرافقي البطرق من المسلمين أن يكفوا عن القتال، ثمّ ناداهم رجل من الروم، وقال: اعلموا أن صفة الرجل الذي يفتح بلدنا هذا وجميع الأرض عندنا، فإن كان هو أميركم، فلا نقاتلكم، بل نسلّم إليكم، وإن لم يكن إيّاه فلا نسلم إليكم أبداً.

فلما اطلع البطرق على أبي عبيدة، أقبل على قومه يبشرهم أنه ليس هو الرجل الذي يعرفون صفته، وحضّهم على الثبات والصمود للدفاع عن المدينة. وعاد دون أن يكلم أبا عبيدة كلمة واحدة.

ثم اقتتلوا من جديد، واستمر القتال على أشده طيلة أربعة أشهر، والمسلمون صابرون على البرد والثلج والمطر، ولما نظر أهل إيلياء إلى شدّة الحصار، قصدوا البطرق وشرحوا له شدّة الحال، فصعد إلى السور وطلب محادثة أبي عبيدة، فعرض أبو عبيدة عليه أموراً فرفضها صفرونيوس، ثم أخبره أنهم يجدون في كتبهم، وفيما انتهى إليهم من علم اسم فاتح بيت المقدس وصفته، وطلب إليه أن يأتي أمير المؤمنين بنفسه لينظروا إذا كانت الصفة تنطبق عليه، فأقبل عمر رضي الله عنه إلى بيت المقدس، بعد ان استخلف على المدينة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ولما وصل إلى بيت المقدس، والتقى بأبي عبيدة، دنا من أسوارها، فأطلّ عليه البطرق، فعرفه، وطلب إلى قومه أن يعقدوا معه الأمان والذمة، فصالحهم عمر على الجزية، وكتب لهم بذلك عهداً، عرف بالعهدة العمرية.

ولما دخل عمر المدينة، دخل كنيسة القمامة[1] ، وجلس في صحنها، فلما حان وقت الصلاة، وأراد أن يصلي، فأشار إليه البطرق أن يصلي موضعه، فامتنع وصلّى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً، فلما قضى صلاته، قال للبطرق: لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون بعدي، وقالوا: هنا صلّى عمر، وكتب لهم ألاّ يجمع على الدرجة للصلاة، ولا يؤذن عليها. ثم طلب من البطرق أن يعين له موضعاً يبني فيه مسجداً، فدلّه على مكان الصخرة، وكان فوقها كثير من التراب والقمامة، فجعل عمر ينقله بطرف ثوبه، والمسلمون يعاونونه في نقله، ثم جعل المسجد من قبل بيت المقدس، وهو العمري اليوم.

---

(١) كانت الروم خلال احتلالهم لبيت المقدس، قد جعلوا الصخرة مزبلة؛ لأنها قبلة اليهود، حتى أن المرأة كانت ترسل خرقة حيضتها لتلقى في الصخرة، وذلك مكافأة لما كانت اليهود عاملت به القمامة، وهي المكان الذي كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب، فجعلوا يلقون على قبره القمامة، فلأجل ذلك سمي ذلك الموضع القمامة، وانسحب هذا الاسم على الكنيسة التي بناها النصارى هنالك.

## خروج عمر إلى الشام بعد طاعون عَمْواس

وقع في السنة الثامنة عشر للهجرة، في الشام طاعون أتى على كثير من المسلمين، وبلغ عمر خبره وهو متوجه إلى الشام المرّة الثانية، فوافاه الأمراء بسَرْغ[1]، وفيهم أبو عبيدة، فأخبروه بالوباء وشدّته، فاستشار عمر من معه من المهاجرين والأنصار، فمنهم من أشار عليه بالمضي وآخرون أشاروا بالرجوع، فنادى عمر في الناس: إنّي مُصْبحٌ على ظهر فأَصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟! فقال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم، نفِرّ من قدر الله إلى قدر الله، لو كانت لك إبل، فهبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خِصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيتَ الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيّباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه»[2]، فانصرف عمر بالناس إلى المدينة.

ولما اشتدّ الوجع بالناس، وبلغ ذلك عمر، كتب إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه: أن سلام عليك، أما بعد فإنه قد عرضت لي حاجة أريد أن أشافهك بها، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا أن لا تضعه من يدك حتى تقبل إليّ.

فعرف أبو عبيدة قصده فكتب إليه يخبره أنه عرف حاجته، وأنه لا يجد بنفسه رغبة عن أصحابه، ثم لم يلبث أبو عبيدة أن مات بهذا الوباء، فخلفه عمرو بن العاص فخرج بالجيش إلى موضع مرتفع من الجبال، فخفّ عنهم الوباء، فاستحسن عمر فعله، ومات يزيد بن أبي سفيان أمير دمشق، فاستخلف عليها أخاه معاوية، واستعمل شرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجها. وأصاب الناس من الموت ما لم يروا مثله، ثم رفعه الله عنهم بعد إقامته شهوراً، فكتب

---

(١) سَرْغُ: بفتح أوله، وسكون ثانيه، ثم غين معجمة، وهو أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك.

(٢) أخرجه مسلم في السلام حديث رقم (٢٢١٩) وأحمد في المسند.

الأمراء إلى عمر بما في أيديهم من المواريث، فجمع الناس واستشارهم في الخروج لإنفاذها، ثم سار من المدينة، واستخلف عليها عليّ بن أبي طالب، وجعل طريقه على أيلة[1]، فلما دنا منها، وركب بعيره وعلى رحله فرو مقلوب، فلما تلقاه الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم، يعني نفسه.

ولما قدم عمر إلى الشام قسم المواريث، ورتب الشواتي[2] والصوائف، وسدّ فروج الشام ومسالحها، وأجرى بعض التغييرات، فاستعمل عبد الله بن قيس على السواحل، من كلّ كورة، واستعمل معاوية على دمشق، وعزل شرحبيل عن الأردن، ثم قيل لعمر: لو أمرت بلالاً فأذّن، فأمره بذلك، فما بقي أحد أدرك النبي ﷺ إلاّ بكى حتى بلّ لحيته، وعمر أشدّ الناس بكاء، وبكى من لم يدركه لبكائهم، كل ذلك لذكرى رسول الله ﷺ ثمّ رجع عمر إلى المدينة في ذي القعدة.

## قصة عبد الله بن حذافة السهمي مع ملك الروم

روى البيهقي بإسناده عن أبي رافع قال: وجّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً إلى الروم، وفيهم رجل يقال له: عبد الله بن حذافة من أصحاب النبي ﷺ، فأسره الروم، فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد ﷺ، فقال له الطاغية: هل لك أن تتنصر وأشركك في ملكي وسلطاني؟ فقال له عبد الله: لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت. قال الطاغية: إذاً أقتلك. قال: أنت وذاك. قال: فأمر به فصُلب وقال للرماة: ارموه قريباً من يديه قريباً من رجليه، وهو ما زال يعرض عليه أن يتنصر فيأبى. ثم أمر به فأنزل، ثم دعا بقدر وصبّ فيها ماء وأشعل تحتها حتى احترقت، ثم دعا بأسيرين من المسلمين، فأمر بأحدهما فألقي فيها، وما زال يعرض على عبد الله بن حذافة رضي الله عنه النصرانية فيأبى، ثم أمر به أن يلقى في الماء

---

(١) أَيْلَة: مدينة على ساحل بحر القُلْزُمْ مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام.

(٢) الشواتي والصوائف: الشواتي جمع شاتية: وهي السرية التي تغزو في الشتاء، والصوائف: جمع الصائفة وهي التي تغزو بالصيف.

المحترق، فلما ذهب به بكى، فقالوا للطاغية: إنه بكى، فظن أنه رجع، فقال: ردوه، فعرض عليه النصرانية فأبى، فقال الطاغية: فما أبكاك؟ قال عبد الله: أبكاني أني قلت: هي نفسٌ واحدة تلقى هذه الساعة في هذا القدر فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد كل شعرة في جسدي نفس تلقى هذا في سبيل الله. قال الطاغية: هل لك أن تقبّل رأسي وأخلّي عنك؟ قال عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين. قال: وعن جميع أسارى المسلمين.

قال عبد الله: فقلت في نفسي: عدوٌّ من أعداء الله أقبل رأسه ويخلّي عني وعن أسارى المسلمين لا أبالي، قال: فدنا منه وقبّل رأسه، فدفع إليه الأسارى، فقدم بهم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخبر عمر بخبره فقال: حقّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام عمر رضي الله عنه فقبل رأسه[1].

## فتح مصر

فتحت مصر سنة عشرين، وقيل إنها فتحت سنة ست عشرة، وبالجملة فينبغي أن يكون فتحها قبل عام الرّمادة؛ لأن عمرو بن العاص حمل الطعام في بحر القلزم من مصر إلى المدينة والله أعلم. وقيل غير ذلك. وأمّا فتحها فإنه لما فتح عمر بيت المقدس، وأقام به أياماً، وبعث عمرو بن العاص إلى مصر، وأتبعه الزبير بن العوّام مدداً له، فأخذ المسلمون بَابِلْيُون[2]، وساروا إلى مصر فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر، ومعه الأسقف، بعثه المقوقس عظيم القبط لحماية البلاد، فلما نزل بهم عمرو قاتلوه، فأرسل إليهم: لا تعجلونا حتى نعذر إليكم وترون رأيكم بعد، وليبرز إليّ أبو مريم، وأبو مريام، فكفوا، وخرجا إليه فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهما بوصية رسول الله ﷺ بأهل مصر، بسبب هاجر أم إسماعيل عليها السلام[3]، فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء.

---

(١) البيهقي: شعب الإيمان، ٤/ ٢٦٨ ـ ٢٧٠، والقصة ذكرها ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٨٨، في ترجمة عبد الله بن حذافة، وقال: لها شاهد وذكرها الذهبي في السير ٢/ ١٤ في ترجمة عبد الله.

(٢) بَابِلْيُون: هو اسم لموضع الفسطاط خاصة.

(٣) أخرج مسلم وأحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمي

ثم طلبا الأمان من عمرو حتى يرجعا إليه، فقال: مثلي لا يخدع ولكنني أؤجلكما ثلاثاً لتنظرا، فقالا: زدنا، فزادهم يوماً، فرجعا إلى المقوقس، فأما أرطبون والي الروم على مصر، فإنه أبى أن يجيبهما وعزم على محاربة المسلمين، فبيّتهم، إلا أن المسلمين كانوا حذرين فألحقوا به الهزيمة، وقتل أرطبون وكثير معه، وفرّ الباقون إلى الإسكندرية.

وسار عمرو والزبير رضي الله عنهما إلى عين شمس[1]، فحاصرهم، وبعث إلى فرما[2] أبرهة بن الصباح، وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية، وحاول بعض العقلاء من أهل مصر أن يثنوا المقوقس عن قتال المسلمين، وذكروه بهزيمتهم لكسرى وقيصر، إلا أنه رفض النصيحة، وعزم على القتال، فقاتلهم المسلمون وهزموهم، ودخل عليهم الزبير عنوة، فلما رأوا ذلك، فتحوا الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم، فأجروا ما أخذوه عنوة مجرى الصلح، فصاروا ذمّة، وأجروا من دخل في صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر، ومن اختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه.

## قصة نيل مصر وكرامة لعمر:

لما افتتحت مصر، أتى أهلها عمرو بن العاص ـ حين دخل بؤنة من أشهر العجم ـ فقالوا: أيها الأمير، لنيلنا هذا سنّة لا يجري إلا بها، قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت اثنتا عشرة ليلة دخلت هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحليّ والثياب أفضل ما يكون، ثمّ ألقيناها في النيل، فقال لهم عمرو: إن هذا ممّا لا يكون في الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا قريباً من ثلاثة أشهر، والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً، حتى

---

= فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً» أو: «ذمة وصهراً».

(١) عَيْنُ شمس: اسم مدينة فرعون موسى بمصر، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وهي الآن خراب وبها آثار قديمة وأعمدة تسميها العامة مسالّ فرعون، سود طوال جداً.

(٢) الفَرَمَا: مدينة على الساحل من ناحية مصر، وهي مدينة قديمة بين العريش والفسطاط.

همّوا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل، فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة فإذا فيها: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد: فإن كنت إنما تجري من قبلك ومن أمرك فلا تجرِ، فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت إنما تجري بأمر الله الواحد القهار، وهو الذي يجريك، فنسأل الله تعالى أن يجريك». فألقى عمرو البطاقة في النيل، فأصبحوا وقد أجرى الله النيل ستة عشرة ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم..

obeikandl.com

### ٣ ـ إرساله الجيوش لفتح العراق وبلاد فارس:

بادر عمر ﷺ منذ اللحظة الأولى لتولّيه الخلافة، إلى تنفيذ وصية أبي بكر ﷺ، القاضية بإرسال الجيوش إلى العراق، وكان المثنى بن حارثة ﷺ، قد قدم على أبي بكر في حال مرضه، ليستشيره في أمر الانقضاض على بلاد فارس، لما حدث من الاختلاف بينهم، إلاّ أن أبا بكر لم يستطع إجابة طلبه لمرضه، فأوصى عمر أن ينتدب الناس بعد توليه منصب الخلافة، فندب عمر الناس، فكان أول منتدب لذلك أبو عبيد بن مسعود الثقفي، وسعد بن عبيد الأنصاري، وسليط بن قيس، وتتابع الناس، فلما اجتمع ألف أمّر عليهم أسبقهم انتداباً أبا عبيد بن مسعود ﷺ، ثمّ أوصاه، وكان هذا أوّل جيش سيّره عمر.

ثمّ سيّر المثنى إلى العراق، وأمره أن يستنفر من حَسُنت توبته من المرتدين، فسار مسرعاً حتى وصل الحيرة.

## وقعة النَّمارق[1]

كان المثنى قد تغيّب عن الحيرة شهراً، كانت في أثنائها بلاد فارس، تتخبّط بالمشاكل الداخلية فاستولى أمير وأعقبته أميرة، ثمّ اتفقوا أخيراً على ولاية بوران بنت كسرى، وأن يقوم بأمرها رستم، حتى يجدوا رجلاً من بيت كسرى يصلح للملك. فاستعدّ رستم لقتال المسلمين، وجهّز لذلك الجيوش، فأرسل جيشاً إلى فرات بادقلي وقائده جابان، وجيشاً آخر إلى كَسْكَر[2]، وقائده نرسي، وجيشاً آخر لمصادمة المثنى، وأرسل إلى الفلاحين أن ينتفضوا على المسلمين ففعلوا.

وجمع المثنى جموع المسلمين وهم قليل، فغادروا الحيرة، وتركوها للعدو وخرجوا إلى الصحراء، في الطريق المؤدية إلى المدينة، وهنالك انتظروا أبا عبيد الذي لم يحضر إلا بعد شهر، ومعه القبائل الموالية التي انضمت إلى جيشه في طريقه إلى العراق.

---

(١) النَّمارق: موضع قرب الكوفة من أرض العراق، نزله عسكر المسلمين في أول ورودهم العراق.

(٢) كَسْكَر: كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية، لأنها تكثر بها جداً، وقصبتها اليوم واسط القصبة التي بين الكوفة والبصرة، وتدخل فيه البصرة ونواحيها.

وكان قد اجتمع من الفرس جمع عظيم، وعسكروا بالنمارق، فهزم المسلمون من تجمع فيها من الفرس، وطلب أمراؤهم الصلح فأجابهم المثنى وأخذ منهم الجزية.

ثم جاؤوا إلى أبي عبيد بأنواع الأطعمة المحبوبة عند الفرس، فقال لهم:

هل أكرمتم الجند بمثلها؟ فأجابوا بالنفي، فقال أبو عبيد: لا حاجة لنا فيه، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم، استأثر عليهم بشيء، ولا والله لا آكل ما أتيتم به ولا مما أفاء الله إلا مثل ما يأكل أوساطهم.

تلك هي أخلاق القادة من سلفنا الصالح فليتدبر هذه الرواية قادة المسلمين اليوم، الذين يمرغون في النعيم، ويغرقون رعاياهم بالفقر والعوز. ثم سار حتى لقي الجالينوس بباقُسْياثا[1] فقاتله حتى هرب وانهزم جيشه، فأرسل المثنى إلى عمر بالبشارة والأخماس، وفيها ثمر كان لنرسي، لا يأكله إلا ملوك الأعاجم أو من أكرموه بشيء منه أو لا يغرسه غيرهم. وكتب إلى عمر: «إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة تحميها وأحببنا أن تروها لتشكروا إنعام الله وإفضاله».

## وقعة الجسر (قُسّ الناطفِ)[2]

لما رجع الجالينوس إلى رستم منهزماً، جهّز جيشاً عظيماً، بقيادة بهمن جاذويه، المعروف بذي الحاجب، ومعه راية فارس العظمى، واسمها (درفش كابيان) عرضها ثمانية أذرع في طول اثني عشر من جلود النمر. فلما بلغ ذلك أبا عبيد، رجع إلى الحيرة، وأقبل الجالينوس حتى نزل قسّ الناطف على الفرات، وأقبل أبو عبيد حتى نزل بالعدوة المقابلة من النهر، فبعث بهمن إلى أبي عبيد: إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تدعونا نعبر إليكم. فعبر أبو عبيد النهر بجيشه دون أن يصغي لنصيحة أصحابه بعدم العبور، وضاقت الأرض بأهلها، واقتتلوا، فلما رأت خيول العرب الفيلة، رأت شيئاً منكراً لم تكن رأت مثله، فلم تقدم عليها، وإذا حملت الفرس إلى المسلمين بالفيلة فرقت خيولهم، وأوقعت

(١) باقُسْيَاثَا: ناحية بأرض السواد من عمل بارُسما.

(٢) قُسّ الناطف: موضع قريب من الكوفة على شاطئ الفرات الشرقي.

الارتباك في صفوفهم. واشتدّ الأمر على المسلمين، فطلب أبو عبيد من أصحابه أن يهاجموا الفيلة، ويقطعوا بطانها، ويقلبوا عنها أهلها، ووثب هو على الفيل الأبيض ففعل به ذلك، ولكن الفيل خبطه فوقع، فوطئه حتى مات رضي الله عنه، فأخذ الراية بعده أحد أصحابه، فقاتل حتى قتل، وسقط ساعتئذ سبعة نفر من ثقيف، كلهم يأخذ الراية ويقتل. حتى انتهت إلى المثنى، وقد هرب عنه الناس، وحال الجسر الذي قطعه أحد المسلمين لئلا يفرّوا دون عبورهم للنهر، فتدافعوا نحو النهر، فغرق بعضهم، ونجا آخرون، فنادى المثنى رضي الله عنه الذين عبروا، وأمرهم بعقد الجسر، فعقدوه، وأمر المسلمين بالعبور، وقال: أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم، ولا تدهشوا، ولا تغرقوا نفوسكم.

فعبروا الجسر، ومات من المسلمين في هذه الوقعة ما ينيف على أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وقد ذهب كثير ممن عبر النهر استحياء مما فعلوه من الهزيمة، فبقي المثنى جريحاً في قلة من جنده، وقتل من الفرس ستة آلاف، وأراد بهمن العبور خلف المسلمين، غير أنه بلغه خبر اختلاف الفرس، وأنهم قد ثاروا برستم، ونقضوا الذي بينهم وبينه، وصاروا فريقين: أحدهما مع رستم، والآخر مع الفيرزان، فعاد مسرعاً إلى المدائن.

ولما بلغ عمر خبر الهزيمة، وأن كثيراً من الناس ذهبوا في البلاد استحياء قال: «اللهم إن كل مسلم في حلّ مني، أنا فئة كل مسلم، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إلي لكنت له فئة».

وكانت هذه الوقعة في شعبان في السنة الثالثة عشرة من الهجرة.

## وقعة البُوَيب[1]

لمّا بلغ عمر خبر وقعة أبي عُبيد بالجسر، أمدّ المثنّى بجيوش كثيرة، فيهم جرير بن عبد الله البجلي في قومه بجيلة، وعصمة بن عبد الله الضبي وقومه، واستنفر من حسنت توبته من المرتدين، فكلما أتاه أحد منهم وجهه إلى المثنى، وكان فيمن جاءه أنس بن هلال النمري فيمن يليه من نصارى العرب، خرجوا حَمِيّة.

---

(١) البُوَيْب: تصغير الباب، نهر كان بالعراق موضع الكوفة.

وبلغ الخبر رستم والفيرزان، فبعثا جيشاً بقيادة مهران الهمذاني إلى الحيرة، فكتب المثنى إلى جرير وعصمة ومن معهما أن يوافوه، فانتهوا إليه في البويب.

وأرسل مهران إلى المثنى يخيّره إما أن يعبر إليهم أو يعبروا إليه، فاختار المثنى أن يعبر إليه الفرس، ولم يشأ أن يكرر الخطأ الذي ارتكبه أبو عبيد. وبينما كانوا يعبرون إليه، عكف على تسوية صفوفه، وراح يحرض المسلمين قائلاً: «إني لأرجو أن لا يُؤتى الناس من قِبَلكم اليوم. والله ما يسرّني اليوم لنفسي شيء، إلا وهو يسرّني لعامّتكم، فيجيبونه بمثل ذلك، وأنصفهم من نفسه في القول والفعل، وخلط الناس في المحبوب والمكروه، فلم يقدر أحد أن يعيب له قولاً ولا فعلاً، وقال: إني مكبر ثلاثاً، فإذا كبرت الرابعة فاحملوا، فلما كبّر الأولى أعجلتهم فارس، فرأى خللاً في صفوف بني عجل، فأرسل إليهم: الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم. فقالوا: نعم. واعتدلوا، فضحك فرحاً. فلما طال القتال واشتدّ، قال المثنى لأنس بن هلال النمري: إنك امرؤ عربي، وإن لم تكن على ديننا، فإذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي، فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته، ثمّ خالطوهم واجتمع القلبان، وارتفع الغبار، والمجنبات تقتتل، لا يستطيعون أن يحسموا المعركة، لا المسلمون ولا المشركون، ونجح غلام نصراني من تغلب في قتل مهران، وحمل المثنى على قلب المشركين فأفناه، فلما رأى ذلك مجنبتا المسلمين، وثبوا على مجنبات المشركين، فردّوهم على أعقابهم مدحورين. وحال المثنى بينهم وبين الجسر، فافترقوا بشاطئ الفرات مصعدين ومنحدرين لا يلوون على شيء، وقد سقط من الفرس في هذه الموقعة مئة ألف، وندم المثنى على قطعه الجسر أمام المنهزمين، وكان يقول: عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم، فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس إلى مثلها فإنها كانت زلّة، فلا ينبغي إحراج من لا يقوى على امتناع».

ثم أرسل المثنى الخيل في طلب العجم، فبلغوا السِّيْب[1]، حتى وصلوا إلى

(١) السِّيْبُ: أصله مجرى النهر، وهو كورة من سواد الكوفة.

ساباط، فافتتحوها، وغنموا من البقر والسّبي وسائر الغنائم شيئاً كثيراً، فقسّمه المثنى فيهم، وصار بعد ذلك طريق المسلمين من الحيرة إلى شواطئ دجلة آمناً لا يخافون فيه كيداً.

## خبر الخنافس وسوق بغداد[1]

ثم خلف المثنى بالحيرة بشير بن الخصاصية، وسار يمخر السواد، فنزل أُلَّيْس قرية من قرى الأنبار، وجاء إلى المثنى رجلان أحدهما أنباري يدلّه على سوق الخنافس، والآخر حيري يدله على سوق بغداد، فبدأ بسوق الخنافس، حيث يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد وربيعة وقضاعة، فأغار عليهم يوم سوقهم، فانتهب السوق وما فيها، ثمّ رجع فأتى الأنبار فتحصّن أهلها منه، فلما عرفوه نزلوا إليه وأتوه بالأعلاف والزاد، وأخذ منهم الأدلاء على سوق بغداد، ثم سار إلى سوق بغداد ليلاً، وصبحهم في أسواقهم، فوضع السيف فيهم، وأخذ ما شاء، وقال المثنى: لا تأخذوا إلا الذهب والفضة، والحرّ من كل شيء، ثم عاد راجعاً حتى نزل بنهر السيلحين بالأنبار، ثم واصل زحفه حتى بلغ شمال تكريت، وكتب إلى عمر بالبشارة وبعث إليه بالأخماس.

## اجتماع الفرس على يزدجرد

بسط المسلمون سلطانهم في هذه المرحلة على سواد العراق، يأخذون الجزية من أهل الذمّة، ولم تبق للفرس سلطة ما غربي الفرات، فلما رأى عظماء فارس ما يفعل المسلمون بالسواد، وأن ملكهم آخذ في الاضمحلال والزوال إن لم يسارعوا إلى إزالة أسباب الضعف، التي تتمثل في الاختلافات القائمة بين أمرائهم على ملك فارس، فجمعوا رستم والفيرزان، وقالوا لهما: لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس.. والله لتجتمعان أو لنبدأنَّ بكما قبل أن يشمت بنا شامت.

فانتهى الأميران إلى قول العظماء، ورأوا أن يبحثوا عن رجل من آل كسرى،

(١) وهذه الغزوة تدعى غزوة الأنبار الآخرة، وغزوة أليس الآخرة.

وبعد الجهد وجدوا ابناً له اسمه يزدجرد، فملكوه عليهم، وهو ابن إحدى وعشرين سنة، ثمّ بعث إلى الأقاليم فخلعوا الطاعة للمسلمين، وسيّر الجيوش لحماية الثغور، واسترداد ما فقد منها، فسيّر جيشاً للأبلّة، وجيشاً للحيرة، وجيشاً للأنبار.

فبلغت هذه الأخبار المثنى، فكتب إلى عمر، فقال عمر: «والله لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب»، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي أو شرف ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، وكتب إلى المثنى يأمره بالانسحاب من أرض العجم والتفرّق في المياه حتى تجتمع إليه الجيوش.

ثم كتب عمر إلى عماله أن يبعثوا من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح، أو رأي، فلم تلبث البعوث أن جاءته المدينة، ومن كان أقرب إلى العراق انضمّ إلى المثنى، فلما اجتمع عند عمر جيش عظيم، خرج بهم من المدينة، بعد أن استخلف عليّ بن أبي طالب، ونزل بصِرار[1]، فعسكر به، والمسلمون لا يعرفون قصده، فلما أعلمهم برغبته في قتال الفرس، قال له عليّ: «إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشدّ لكلبهم عليك، وطمعهم فيك، فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين، فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة»[2].

ثمّ أشار عليه خاصة أصحاب رسول الله ﷺ بالمقام، وتولية رجل من أهل الشهامة والنجدة أميراً على الجيش، فأجابهم، ثمّ انتخب لقيادة هذا الجيش سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه، فأمّره ووصّاه، ومما قاله له: «لا يغرنّك من الله أن قيل: خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسبٌ إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربّهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما

(١) صِرَارٌ: موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق.

(٢) الشريف الرضي: نهج البلاغة بشرح محمد عبده، ٢/ ١٨٣.

عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه». ووصاه بالصبر وسرحه بأربعة آلاف مقاتل، وأتبعه بمثلها، وأرسل إليه عهداً هذه صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد... فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كلّ حال، فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراساً منكم من عدوّكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوّهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوّة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، وعدتنا ليست كعدّتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلاّ ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوّتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدوّنا شرّ منا فلن يسلّط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هو شرّ منهم، كما سلّط على بني إسرائيل لما عملوا بالمعاصي كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، وسلوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوّكم، وأسأل الله ذلك لنا ولكم.

أكتفي بهذا القدر من هذه الوصية الرائعة، ويا حبذا لو يتدبّرها الحكام في هذا الزمان، فلعلّهم يفقهون ما انطوت عليه من قيم، ليدركوا أن النصر لا يتحقق بكثرة العدد ولا بقوّة العتاد، إنما يتحقق بتقوى الله تعالى والابتعاد عن الذنوب والمعاصي.

## وقعة القادسية[1]

سار سعد رضي الله عنه إلى العراق، ولما انتهى إلى نهر زرود، ولم يبق بينه وبين أن يجتمع بالمثنى إلا اليسير، وكلّ منهما مشتاق إلى صاحبه، انتقض بالمثنى جرحه يوم الجسر فمات رحمه الله، وكان قد استخلف على الناس بشير بن الخصاصية، فضمّ سعد إليه جيش المثنى، وسار إلى شَراف فنزلها، ولحقه بها الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن، فكان جميع من شهد القادسية بضعة وثلاثين ألفاً، فلما اجتمعوا إليه عبّأهم، وأمّر الأمراء، وعرّف على كلّ عشرة عريفاً، وجعل

(١) القادسية: قرية قرب الكوفة.

على الرايات رجالاً من أهل السابقة، وقدِم المعنّى بن حارثة الشيباني وسلمى زوج المثنى على سعد بشراف، فأعلمه برأي المثنى له وللمسلمين يأمرهم أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم، ولا يقاتلوهم بعقر دارهم، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة، ثمّ يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يردّ الله الكرّة عليهم. فترحّم سعد ومن معه على المثنى، ثمّ كتب عمر إلى أبي عبيدة ليصرف أهل العراق، ومن اختار أن يلحق بهم إلى العراق، ممدِّين لسعد.

سار سعد من شراف إلى العُذَيْب[1]، ثم سار حتى نزل بالقادسية، وكتب عمر إلى سعد: «إني ألقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم، فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه»، ثمّ أوصاه بالوفاء بالعهد، وحذّره من الغدر لأن فيه ضعفهم وذهاب ريحهم.

## كرامة لعاصم بن عمرو التميمي :

أقام سعد بالقادسية شهراً لا يأتيه من الفرس أحد، فأرسل عاصم بن عمرو إلى ميسان[2]. فطلب غنماً أو بقراً فلم يقدر عليها، وتحصّن منه من هناك، فأصاب عاصم رجلاً بجانب أجمة[3] فسأله واستدله عن البقر والغنم، فقال: ما أعلم. فصاح ثور من الأجمة: كذب عدوّ الله، وها نحن أولاء، فدخل فاستاق البقر، فأتى بها العسكر، فقسمه سعد على الناس فأخصبوا أياماً.

فبلغ ذلك الحجاج في زمانه فأرسل إلى جماعة فسألهم عن هذه الكرامة، فشهدوا أنهم سمعوا ذلك وشاهدوه، فقال: كذبتم! قالوا: ذلك إن كنت شهدتها وغبنا عنها، قال: صدقتم، فماكان الناس يقولون في ذلك؟ قالوا: آية تبشير يستدل بها على رضا الله وفتح عدوّنا. فقال: ما يكون هذا إلا والجمع

(١) العُذَيبُ: تصغير العذب، وهو ماء بين القادسية والمغيثة، وهو من منازل حاج الكوفة.
(٢) مَيْسَان: اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط، قصبتها ميسان.
(٣) الأجمة: الشجر الكثيف.

أبرار أتقياء، قالوا: والله ما ندري ما أجنت قلوبهم، فأمّا ما رأينا فما رأينا قوماً قطّ أزهد في دنيا منهم، ولا أشدّ بغضاً لها، ليس فيهم جبان ولا غالّ[1] ولا غدار.

وهذه كرامة عظيمة، فيها البيان الواضح على كلاءة الله وحفظه للمجاهدين في سبيله؛ فليتدبرها اليوم الناكصون على الأعقاب، الزاحفون على البطون، الذين استمرؤوا الذلّ والهوان بعد أن كانوا أعزّة، وصاروا أمام أعدائهم كالأرانب، وأمام شعوبهم كالأسود الضارية.

## رسل سعد إلى يزدجرد يدعونه إلى الإسلام :

بثّ سعد الغارات على من ليس لهم ذمة بين كسكر والأنبار[2]، فغنموا من الأطعمة ما استكفوا به زماناً، فاستغاث أهل السواد بيزدجرد، وأعلموه أن العرب قد نزلوا القادسية، فأرسل إلى رستم وأمره بالاستعداد والتأهب لقتالهم، فامتثل كرهاً؛ لأنه كان من رأيه مطاولة المسلمين ومصانعتهم حتى يهنوا، فخرج وعسكر بساباط[3]، وجاءت الأخبار بذلك إلى سعد، فكتب إلى عمر، فكتب إليه عمر: لا يكربنّك ما يأتيك عنهم، واستعن بالله، وتوكل عليه، وابعث إليه رجالاً من أهل المناظرة والرأي والجلد يدعونه، فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم.

فأرسل سعد نفراً منهم: النعمان بن مقرّن، وبُسر بن أبي رهم، والأشعث بن قيس، وفرات بن حيان، وعاصم بن عمرو التميمي، وعمرو بن معد يكرب، والمغيرة بن شعبة، فلما وصلوا إلى المدائن، اجتمع الناس ينظرون إليهم، وتحتهم خيول كلّها إصال، وعليهم البرود وبأيديهم السياط، ثم أُدخلوا على يزدجرد، وعنده وزراؤه، وفيهم قائد جنده رستم، فسألهم مستعيناً بترجمانه: ما

---

(١) غالّ: هو من الغلول.

(٢) الأنبار: مدينة قرب بلخ، وهي أكبر من مرو الروذ وبالقرب منها، ولها مياه وكروم وبساتين كثيرة.

(٣) ساباط كسرى: بالمدائن موضع معروف، وهو بُليدة معروفة بما وراء النهر، قرب أشروسنة، على عشرة فراسخ من خُجَنْدَ، وعلى عشرين فرسخاً من سمرقند.

جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟! أمن أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟!

فتكلم النعمان بن مقرّن ﷺ بالنيابة عنهم فقال: إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير، وينهانا عن الشرّ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فرقة وتباعد عنه بها فرقة، ثم أمر أن نبتدئ إلى من خالفه من العرب فبدأنا بهم، فدخلوا معه على وجهين، مكره عليه فاغتبط، وطائع فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبتدئ بمن يلينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسَّن الحسن، وقبّح القبيح كلّه، فإن أبيتم فأمر من الشرّ هو أهون من آخر شرّ منه الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم. وإن بذلتم الجزاء قبلنا، ومنعناكم وإلاّ قاتلناكم.

فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات تبينٍ منكم، قد كنا نوكّل بكم قرى الضواحي فيكفوننا أمركم، لا تغزوكم فارس، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس، فإن كان غرر لَحِقَكُم فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

فقام المغيرة بن زرارة ﷺ وردّ على يزدجرد في كلام بليغ، وممّا قاله: «فأما ما ذكرت من سوء الحال، فهي على ما وصفت وأشدّ، ثم ذكر من سوء عيش العرب وإرسال الله النبي ﷺ إليهم نحو قول النعمان، وقتال من خالفهم أو الجزية. ثم قال له: اختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجي نفسك» فقال: أتستقبلني بمثل هذا؟! فقال: ما استقبلت إلا من كلمني، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به، فقال: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي.

ثم استدعى بوقر من تراب، فقال: احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه

حتى يخرج من باب المدائن، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية، وينكل به وبكم، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور.

وقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب، وقال: أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء، فحمله على عنقه وخرج مع أصحابه من الإيوان في طريقه إلى معسكر سعد مستبشراً، وقد ترك وراءه أشراف فارس ومليكهم يضربون أسداساً بأخماس، وقد هالتهم الجرأة التي يتمتع بها المسلمون، ولا جرم فإن الحرب النفسية التي مارسها رسل سعد إلى يزدجرد، آتت أكلها، حيث قال يزدجرد لرستم: ما كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء، ما أنتم بأحسن جواباً منهم، ولقد صدقني القوم، لقد وعدوا أمراً ليدركنه أو ليموتن عليه، على أني وجدت أفضلهم أحمقهم، حيث حمل التراب على رأسه فخرج به. فقال رستم: أيها الملك، إنه أعقلهم، ثم خرج من عنده كئيباً مغضباً، وبعث في أثر الوفد من يردّهم، فلم يدركوهم فقال: ذهب القوم بأرضكم من غير شك. وكان منجماً كاهناً.

ثم خرج رستم في مئة ألف جندي أو يزيدون من ساباط، فلما مرّ على كُوْثَىٰ[1] أُتي برجل من العرب، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ فقال: جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا! قال رستم: فإن قتلتم قبل ذلك؟ قال: من قتل منا دخل الجنة، ومن بقي منا أنجزه الله ما وعده، فنحن على يقين. فقال رستم: قد وضعنا إذن في أيديكم، فقال: أعمالكم وضفتكم فأسلمكم الله بها، فلا يغرنك من ترى حولك فإنك لست تجاول الإنس، إنما تجاول القضاء والقدر. فاستشاط رستم غضباً وأمر بقتله.

ثم سار رستم فنزل البرس[2]، فغصب أصحابه أهله وأبناءه، ووقعوا على النساء وشربوا الخمور، فشكى أهل البرس إلى رستم، فقال لأتباعه: يا معشر فارس، والله لقد صدق العربي، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله إن العرب مع

---

(١) كُوْثَىٰ: بسواد العراق في أرض بابل.

(٢) البُرس: موضع بأرض بابل به آثار لبخت نصر وتل مفرط العلوّ يسمى صرح البُرس.

هؤلاء وهم لهم حرب، أحسن سيرة منكم، إن الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم في البلاد بحسن السيرة وكفّ الظلم والوفاء بالعهود والإحسان، فإذا تغيرتم فلا أرى الله إلا مغيراً ما بكم، وما أنا بآمن من أن ينزع الله سلطانه منكم. ثم أتي ببعض المفسدين فضرب أعناقهم. ثم سار حتى نزل الحيرة، ودعا أهلها وتهدّدهم وهمّ بهم، فقال له ابن بقيلة: لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا، وتلومنا على الدفع عن أنفسنا وبلادنا، فسكت.

ولما علم سعد خبر رستم أرسل دورية استطلاعية من عشرة رجال، عليهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وطليحة بن خويلد الأسدي، فلم يسيروا إلا قليلاً حتى رأوا سرح العدو منتشراً على الطفوف، فرجعوا إلا طليحة، فإنه تسلّل إلى معسكر رستم، وبات فيه يستطلعه عن كثب، ولم يرض أن يخرج كما دخل، حتى سلب فرسان فارس، وهتك عليهم البيوت، وخرج يعدو، فلحق به ثلاثة منهم، فقتل اثنين، وعاد بالثالث أسيراً إلى معسكر المسلمين، فأمنه سعد، وقد أعرب الفارسي عن عظيم إعجابه بطليحة، ثم أسلم ولزم طليحة.

## بدء المفاوضات بين سعد ورستم :

ثم إن رستم سار بجيشه من الحيرة حتى نزل على العتيق (جسر القادسية) بحيال عسكر سعد، وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلاً منها فيل سابور الأبيض، وكانت الفيلة تألفه ثم سار من العتيق حتى انتهى إلى القنطرة قريباً من المسلمين، فتأمّلهم، ثمّ أرسل إلى زهرة بن عبد الله بن قتادة ﷺ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فعرض عليه أن يصالحه، ويجعل له جعلاً على أن ينصرفوا عنه، وذكّره بحسن جوارهم للعرب، وإحسانهم إليهم، فقال له زهرة: ليس أمرنا أمر أولئك، ولا طلبتنا طلبتهم، إنما لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة، ثمّ لخص له دعوة الإسلام ورستم يعقّب عليه بقوله: ما أحسن هذا، ثمّ سأله قائلاً: أرأيت إن أجبت إلى هذا ومعي قومي، كيف يكون أمركم؟ أترجعون؟ قال: أي والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة. قال: صدقتني والله.

ثم أرسل رستم إلى سعد: أن ابعث إلينا رجلاً نكلمه، فأرسل إليه ربعيّ بن عامر رضي الله عنه، فجاءه وقد أظهر زينته، وجلس على سرير من ذهب، وبسط البسط والنمارق، والوسائد المنسوجة بالذهب، فأقبل ربعي على فرسه معه سلاحه، فلما انتهى إلى البسط أراده حرس رستم على النزول، فما كان منه إلا أن وطئ البسط بفرسه، ثمّ نزل وربطها بوسادتين شقّهما وأدخل الحبل فيهما، ثمّ أخذ عباءة بعيره فشدّها على وسطه، فأشاروا عليه بوضع سلاحه، فقال: لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم إلا كما أريد وإلا رجعت. فأذنوا له بعد استشارة رستم، فأقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه، ويزجّ النمارق والبسط، فلم يدع لهم بساطاً ولا نمرقاً إلا أفسده وهتكه، فلما دنا من رستم جلس على الأرض وركز رمحه على البسط، فقيل له: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، فقال له ترجمان رستم: ما جاء بكم؟ قال: الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبله قبلنا منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر.

فطلب رستم مهلة حتى يكاتبوا أهل رأيهم ورؤساء قومهم، فأجابه ربعيّ: إن ممّا سنّ لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل: إما الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك، وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك [بقتال] إلا أن تبدأنا، أنا كفيل بذلك عن أصحابي، قال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد، بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم.

فخلا رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم كلاماً قطّ أعزّ وأوضح من كلام هذا الرجل؟! فقالوا: معاذ الله أن نميل إلى دين هذاالكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويحكم لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة.

ثم أرسل إلى سعد: أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم حذيفة بن محصن ﷺ، فأقبل في نحو من ذلك الزيّ، ولم ينزل عن فرسه، ووقف على رستم راكباً، فقال له: انزل، قال: لا أفعل، فقال له: ما جاء بك ولم يجئ الأول؟! قال له: إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء، وهذه نوبتي، فقال: ما جاء بكم؟ فأجابه مثل الأول، فقال رستم: المواعدة إلى يوم ما؟ قال: نعم، ثلاثاً من أمس، فردّه، وأقبل على أصحابه، وقال: ويحكم أما ترون ما أرى؟ جاءنا الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا وحقّر ما نعظّم، وأقام فرسه على زبرجنا، وربطه به، وجاءنا هذا اليوم فوقف علينا وهو في يمن الطائر يقوم على أرضنا دوننا، واشتدّ الجدل بينه وبينهم حتى أغضبهم وأغضبوه.

فلما كان الغد أرسل إلى سعد: أنِ ابعث إلينا رجلاً، فبعث إليه المغيرة بن شعبة ﷺ، فأقبل حتى جلس مع رستم على سريره، فوثبوا عليه وأنزلوه بقوّة، فقال لهم: قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنّا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم، ولا يصنعه أحد، وإني لم آتكم ولكن دعوتموني اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون، وإن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول.

فقالت السّفلة: صدق والله العربي، وقالت الدّهاقين: والله لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أوّلينا، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة.

ثمّ تكلم رستم بكلام عظّم فيه شأن الفرس وصغّر فيه شأن العرب، وذكر ما كانوا عليه من سوء الحال، وضيق العيش، فقال المغيرة: أما الذي وصفتنا به من سوء الحال والضيق والاختلاف، فنحن نعرفه، ولسنا ننكره، والله ابتلانا به، والدنيا دول، ولم يزل أهل الشدائد يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل الرخاء يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم يقصر عمّا أوتيتم، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغيّر الحال.

ثم تكلم بنحو مما تكلّم به ربعيّ بن عامر، وحذيفة بن محصن، من ذكر الإسلام والجزية والقتال، وقال له: إن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا: لا صبر لنا عنه. فقال رستم: إذاً تموتون دونها. فقال المغيرة: يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم يدخل النار، ويظفر من بقي منا بمن بقي منكم.

فاستشاط رستم غضباً، ثم حلف بالشمس: أن لا يرتفع الصبح غداً حتى نقتلكم أجمعين.

وانصرف المغيرة، وخلص رستم بأهل فارس، وقال: أين هؤلاء منكم؟ هؤلاء والله الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين، والله لئن كان بلغ من عقلهم وصونهم لسرهم أن لا يختلفوا فما قوم أبلغ لما أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء. إلا أن رؤساء فارس ردّوا نصيحة رستم، ولم ينتفعوا بهذه الدعوة، فآل أمرهم إلى الانهيار والزوال.

## التحام الجيشين وهزيمة الفرس :

ثم أرسل رستم إلى سعد يخيّره في أن يعبر النهر بجيشه، أو يعبر إليه رستم بقوّاته؟ فأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا مواقفهم، وأرسل إلى رستم: شأنكم والعبور، فعبروا العتيق، وعبّأ رستم جيشه، وكان يزدجرد قد جعل بينه وبين رستم رجالاً يخبر بعضهم بعضاً بكل جديد لحظة بلحظة. وأخذ المسلمون مصافهم، وكان بسعد دماميل وعرق النسا فلا يستطيع الجلوس، إنما هو مكبّ على وجهه في صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس، وذكر ذلك الناس وعابه بعضهم بذلك، فنزل إلى الناس فاعتذر إليهم وأراهم ما به من القروح في فخذيه وإليتيه فعذره الناس.

وعبّأ سعد جيشه، ثم أرسل رجالاً من ذوي الفصاحة والبلاغة يحرضون على الجهاد، وأمر القرّاء بقراءة سورة الأنفال، فاطمأنّت نفوس الجند ، وغشيتهم السّكينة، ثمّ خطب الناس وحثهم على الجهاد، وذكّرهم ما وعدهم الله من فتح البلاد، وكان ذلك يوم الاثنين من محرم سنة أربع عشرة.

ثمّ قال لهم سعد: الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر، فإذا صلّيتم فإني مكبّر تكبيرة فكبّروا واستعدّوا، فإذا سمعتم الثانية فكبّروا والبسوا عدّتكم، ثم إذا كبّرت الثالثة فكبِّروا ولينشط فرسانكم الناس، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوّكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

فلما كبّر سعد الثالثة، برز أهل النجدات فأنشبوا القتال، والتحم الفريقان، وحملت الفيلة على المسلمين ففرّقت بين الكتائب، فنفرت الخيل، وكادت بجيلة أن تهلك لنفار خيلها، وأرسل سعد إلى بني أسد يأمرهم بالدفاع عن بجيلة، فانبرى طليحة بن خويلد وحمال بن مالك في كتائبهما لهذه المهمة، فأبلوا بلاء حسناً، فلما رأى الفرس ما يلقى جنودهم والفيلة من بني أسد حملوا عليهم حملة واحدة، ومعهم الفيلة، والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد، ودارت رحى الحرب على بني أسد، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميمي ليدبّر حيلة للتخلص من الفيلة، فنادى رجالاً من قومه رماة، وقال لهم: ذبّوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل، وأمر آخرين أن يستدبروا الفيلة فيقطعوا وُضُنها[1]، فأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذنابها وقطعوا وُضُنَها، وقتلوا أصحابها، واستمرّ القتال إلى غروب الشمس وقد قتل من أسد نحو خمسمئة، وكان هذا اليوم الأول من أيام القادسية، وسمّي يوم أرماث، وتسمّى ليلته ليلة الهدأة لأنه لم يحصل فيها قتال. فلما أصبحوا وكّل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم إلى العذيب، ولم يكد سعد ينتهي من أمر القتلى والجرحى، حتى جاءه المدد من الشام، وكان عمر قد أمر أبا عبيدة بن الجراح بإرسال أهل العراق ممدّين لسعد، فسيّرهم وعليهم هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص رضي الله عنه، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله عنه، فتعجل القعقاع فقدم على الناس صبيحة يوم أغواث.

ولم يلبث أن برز بين الصفين، وطلب البراز، فبرز إليه بهمن جاذويه المعروف بذي الحاجب، صاحب وقعة الجسر، فلما رآه عرفه، فنادى: يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر، وتضاربا فقتله القعقاع، ففرح

(١) وضنها: جمع وضين: وهو بطان منسوج بعضه على بعض يشدّ به الرحل على البعير كالحزام للسرج.

المسلمون بقتله، وانكسرت الأعاجم، ثم برز إليه الفيرزان والبندوان، فانضم إليه الحارث بن ظبيان، فقتل كلّ منهما صاحبه، ثمّ حمل المسلمون على الأعاجم وباشروهم بالسيوف، فاقتتلوا حتى المساء، فلم ير أهل فارس في هذا اليوم ما يعجبهم، وأكثر المسلمون فيهم القتل، ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل؛ لأن توابيتها كانت مكسرة فاشتغل الفرس بإصلاحها، وحمل بنو عم القعقاع عشرة عشرة على إبل قد ألبسوها وهي مجلّلة مبرقعة، وأطافت بهم خيولهم تحميهم، وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة، فلقيت منها خيل فارس يوم أغواث أعظم ما لقي المسلمون من الفيلة.

واستمرّ القتال إلى نصف الليل، ثم انفصل الجيشان، بعد أن كاد المسلمون يظفرون برستم، وقد قتلوا في هذا اليوم عامة أعلامهم.

وقد أبلى أبو محجن الثقفي بلاء حسناً في يوم أغواث عندما اشتدّ القتال، وكان محبوساً في القصر، فاستعطف سلمى زوجة سعد أن تطلق سراحه وتعيره البلقاء (فرس سعد) ، وعاهدها أن يرجع آخر النهار إلى محبسه، فرقّت له وأطلقته، وأعطته البلقاء، حتى إذا كان بحيال الميمنة حمل على ميسرة الفرس، ثم رجع خلف المسلمين، وحمل على ميمنتهم، وكان يقصف الناس قصفاً منكراً وتعجّب الناس منه وهم لا يعرفونه. وكان سعد يقول وهو مشرف على الناس من فوق القصر: والله لولا محبس أبو محجن، لقلت: هذا أبو محجن. ثم جاءت سلمى إلى سعد وأخبرته خبر أبي محجن فعفى عنه، وكان قد حبسه لتغنيه بالخمر في شعره.

ثم أصبحوا اليوم الثالث وهم على مواقفهم، وبين الصفين من جرحى المسلمين وقتلاهم ألفان، فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم إلى المقابر، والجرحى إلى النساء، وكان النساء والصبيان يحفرون القبور، وأما قتلى المشركين فبين الصفين لم ينقلوا، وتجلّت عبقرية القعقاع العسكرية يومئذ حيث كان يسرّب أصحابه ليلاً إلى مكان تمّ الاتفاق عليه، ثمّ أمرهم أن يقبلوا عند طلوع الشمس، على شكل مجموعات، في كل مجموعة مئة مقاتل، فتسلّلوا دون أن

يشعر أحد بهم، حتى إذا ذرّ قرن الشمس، أقبلوا، فحين رآهم القعقاع كبّر وكبّر المسلمون. وكان عاصم بن عمرو رضي الله عنه أمر أن يصنع مثلها، ممّا فتّ في عضد الأعاجم ورفع معنويات المسلمين.

احترس الفرس في هذا اليوم على الفيلة، فجعلوا وراءها رجالاً يحمونها، إلا أن خيل المسلمين بدأت تعتادها فلم تنفر منها، ولما ابتدأ القتال وحمي وطيسه، انتدب سعد القعقاع وأخاه عاصم لقتل الفيل الأبيض، وانتدب آخرين لقتل الفيل الأجرب، فحمل القعقاع وعاصم على الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما في عينيه، فنفض رأسه فطرح ساسته، ووقع لجنبه، ثم قتلا ساسته، وذهب الآخران إلى الفيل الآخر، فلما ضرباه ولّى مدبراً لا يلوي على شيء، حتى رمى بنفسه في العتيق فاتبعته الفيلة، فخرقت صف الأعاجم، فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابيتها وهلك من فيها.

وظلّ القتال مستمراً على أشده حتى المساء، فانفصل الجيشان قليلاً، ثم أمر سعد بمعاودة القتال متى كبر، فأعجلتهم الفرس عن انتظار تكبير سعد، فحمل عليهم القعقاع ولم ينتظر إشارة سعد، فقال سعد: اللهم اغفر له وانصره فقد أذنت له، وإن لم يستأذن؛ «لأن المسلمين قد جربوا نتائج العصيان في وقعة أحد في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فخاف سعد أن يعاقبوا، فأذن في القتال، وإن لم يستأذنوه»[1].

ثمّ حملت بنو أسد والنخع، وبجيلة، وكنده تباعاً، وكان سعد يدعو لهم بالمغفرة والنصر؛ لأنهم لم ينتظروا إذنه، فلما صلّى العشاء حمل المسلمون كلهم. ولم ير الناس مثل هذه الليلة، حيث كان فيها صوت الحديد سيد الموقف، وسميت بليلة الهرير، ولم يغمض للمسلمين جفن، وأخذ منهم التعب كل مأخذ، فأقبل عليهم القعقاع يشجعهم، فقال: إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة، فإن النصر مع الصبر، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء صمدوا لرستم، حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح، واستمروا يقاتلون حتى قام قائم الظهيرة، فابتدأ الفرس بالتقهقر، ثمّ حمل هلال بن علفة على رستم فقتله، فانهزم

(١) محمد الخضري بك: إتمام الوفاء، ص ٦٨.

الفرس لا يلوون على شيء، فقام الجالينوس على الردم وأمر الجيش بالعبور، فعبر من نجا منهم، فتبعهم زهرة بن عبد الله، وأدرك الجالينوس وهو يجمع فلول المنهزمين، فقتله، وأخذ ضرار بن الخطاب الفهري الراية العظمى لفارس، وهي (درفش كابيان).

ثم أمر سعد بجمع الغنائم، فقسمها على جنده، وبعث بالأخماس والبشارة إلى أمير المؤمنين عمر، وكان يخرج كل يوم من المدينة يتنسّم الأخبار حتى يردّه حرّ الظهيرة، فلما جاء البشير لاقاه عمر وهو يسير سيراً حثيثاً فسأله عمر: من أين؟ فأخبره الرجل أنه آت من قبل سعد، فقال: يا عبد الله حدّثني، فأخبره وهو يسير وراءه دون أن يعرفه حتى دخل المدينة، فإذا الناس يسلّمون عليه بإمرة المؤمنين، فقال البشير: هلاّ أخبرتني رحمك الله، فقال عمر: لا بأس عليك يا أخي.

## فتوح العراق ما بعد القادسية

## فتح البُرْس وبابل وكُوْثَى

أقام سعد بالقادسية بعد هزيمة الفرس شهرين ينتظر أمر أمير المؤمنين، حتى جاءه يأمره بالمسير إلى المدائن، على أن يترك النساء والعيال بالعتيق، وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً، ويشركهم في كلّ مغنم، ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم، ففعل ذلك وسار من القادسية لأيام بقين من شوّال، فلما وصلت مقدّمة المسلمين بُرس، وعليهم عبد الله بن المعتّم، وزهرة بن عبد الله بن الحويّة، وشرحبيل بن السمط، فلقيتهم فلول المنهزمين من القادسية، فهزمهم المسلمون، ثمّ أقبل بسطام، دهقان بُرس فصالح زهرة، وعقد له الجسور، وأخبره بمن اجتمع ببابل.

أرسل زهرة إلى سعد يخبره بذلك، فقدم عليه سعدٌ وسيَّره مع أصحابه ممّن ذكرنا إلى بابل، حيث ألحقوا الهزيمة بالفرس في أسرع من لمح البصر، ففرّ الهرمزان نحو الأهواز، أما الفيرزان فقد خرج إلى نهاوند[1]، وسار النخيرخان ومهران إلى المدائن، وقطعا الجسر.

---

(١) نهاوند: مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام.

واستمرّ زهرة في زحفه حتى لحق المنهزمين بين الدير وكوثَى، فقاتلهم المسلمون وألحقوا بهم هزيمة نكراء، وهام أكثرهم على وجوههم في البلاد، وأقام زهرة بكوثى في انتظار سعد.

## فتح المدائن

ثمّ إن سعداً قدّم زهرة إلى بَهُرَسِيْر[1]، فتلقّاه شيرزاد دهقان ساباط بالصلح، فأرسله إلى سعد فصالحه على تأدية الجزية، ولما قدم سعد على زهرة ساروا مجتمعين حتى دخلوا بهرسير، في صفر من السنة السادسة عشرة للهجرة، بعد حصار دام شهرين، أكل المحاصَرون خلالها الكلاب والسنانير.

وكان سعد قد أرسل الخيل لفتح القرى المجاورة، فأسروا خلقاً كثيراً من الفلاحين ثمّ خلّى سبيلهم بمشورة عمر، ولما اشتد الحصار على المدائن الغربية، ترك يزدجرد المدينة، وعبر إلى المدينة الشرقية، فعزم سعد على العبور، إلاّ أن الفرس كانوا قد قطعوا الجسور، فأتاه علج من علوج الفرس، فدلّه على مخاضة تخاض إلى صلب الفرس، وبعد أن استشار أصحابه عزم على اقتحام نهر دجلة، وكانت السنة كثيرة المدود، ودجلة تقذف بالزبد، فانتدب عاصم بن عمرو ذوي البأس في ستمئة من أهل النجدات للعبور، فتقدمهم عاصم في ستين فارساً، ثمّ اقتحموا دجلة، فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا، تصدّى لهم مجموعة من الفرسان، فهزمهم فرسان عاصم، وعبروا النهر، فلما رأى سعد ما فعل عاصم، أذن للناس في الاقتحام، وقال: قولوا: نستعين بالله، ونتوكّل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

فعبروا النهر ولم يغرق منهم أحد، غير أن رجلاً زال عن ظهر فرسه فثنى القعقاع عِنان فرسه إليه فأخذه بيده، فأخرجه سالماً. وخرج الناس سالمين وخيلهم تنفض أعرافها.

---

(١) بَهُرَسِيْرُ: من نواحي سواد بغداد قرب المدائن، وهي إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن، وهي في غربي دجلة، وهي تجاه الإيوان، لأن الإيوان في شرقي دجلة، وهي في غربيّه.

ولمّا رأى المسلمون إيوان كسرى أمامهم استبشروا، وقويت قلوبهم، وعظمت همّتهم لتحقيق موعود الله ورسوله ﷺ بدخول الإيوان[1]، ونادى ضرار بن الخطاب: «الله أكبر، هذا أبيض كسرى، هذا ما وعد الله وصدق رسوله»، وكبّر وكبّر معه المسلمون.

ولمّا أخفق الفرس في منع المسلمين من العبور، فرّوا إلى حُلوان[2]، وكان يزدجرد قد قدّم إليها أهله وولده، فلحق بهم، فدخل المسلمون المدينة من غير مقاومة تذكر، ونزل سعد القصر الأبيض، واتخذه مصلّى، وقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان/ ٢٥ ـ ٢٨].

ثمّ تقدّم إلى صدره فصلّى ثمان ركعات صلاة الفتح، ثم أرسل السرايا وراء المنهزمين، فقتلوهم وشرّدوهم واستلبوا منهم أموالاً عظيمة، وشرع سعد في تحصيل ما هنالك من الأموال والتحف، مما لا يُقوّم، ولا يوصف كثرة وعظمة، وفيها كنوز كسرى ومنطقته وتاجه، وبساطه المرصّع بالجوهر، ثمّ قسّم سعد الغنائم على المسلمين، وقسم المنازل بين الناس، وأحضر العيالات من العتيق فأنزلهم الدور، وأرسل الأخماس إلى عمر، فلما وضعها الرسول بين يديه قال: «إن قوماً أدّوا هذا لذوو أمانة»، فقال عليّ: «إنك عففت فعفّت رعيتك، ولو رتعت لرتعت».

ثم ألبس أمير المؤمنين عمر ثياب كسرى ومنطقته وتاجه لسراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، ثم ألبسه سواريه، وطلب إليه أن يقول: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك، أعرابي من بني مدلج.

ففعل سراقة، لتتحقق فيه نبوءة رسول الله ﷺ حينما لحق به على طريق الهجرة

---

(١) روى مسلم عن جابر بن سمرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «عصيبة من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض بيت كسرى» أو «آل كسرى».

(٢) حُلوان العراق: هي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد، وهي مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وسرّ من رأى أكبر منها.

إلى المدينة وساخت به قوائم فرسه عدّة مرات، فقال له ﷺ : «كأني بك وقد ألبست سواري كسرى».

## فتح جلولاء[1] وحُلوان

لما انتهى الفرس بعد هروبهم من المدائن إلى جلولاء، افترقت الطرق بأهل أَذْرَبيجان[2] والباب، وأهل الجبال وفارس، ثم اتفقوا على الاجتماع للعرب ومقاتلتهم، وولّوا أمرهم مهران الرازي، واحتفروا خندقاً أحاطوه بحسك الحديد إلا طرقهم، فبلغ ذلك سعداً، فسرَّح إليهم ابن أخيه هاشم بن عتبة في اثني عشر ألفاً، وجعل على مقدّمته القعقاع حسب أوامر عمر، فساروا في صفر من السنة السادسة عشرة من الهجرة حتى أتوا جلولاء، فحاصرهم في خنادقهم ثمانين يوماً، وجعلت الأمداد ترد إليهم من قبل يزدجرد، وأمدّ سعد المسلمين، فاقتتلوا، وأرسل الله الريح على الفرس، حتى أظلمت عليهم البلاد، فتحاجزوا، فسقط فرسانهم في الخندق، فجعلوا فيه طرقاً مما يليهم تصعد منه خيلهم، فأفسدوا حصنهم، وبلغ ذلك المسلمين فنهضوا إليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله إلا ليلة الهرير، إلا أنه كان أعجل، وانتهى القعقاع من الوجه الذي زحف فيه إلى باب خندقهم، فانهزم المشركون يمنة ويسرة، فهلكوا فيما أعدوا من الحسك، فقتل منهم يومئذ خلق كثير، ثم سار القعقاع في الطلب حتى بلغ خانِقين[3].

فلما بلغت أخبار الهزيمة يزدجرد سار من حلوان نحو الري، وقدم القعقاع حلوان فنزلها، وكتب سعد إلى عمر يخبره بالفتح ويستأذنه في اتباع الفرس، فأبى وقال: لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال.

ولما قدم الخمس على عمر قال: والله لا يجنه سقف بيت حتى أقسمه، فبات

---

(١) جلولاء: في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهو نهر عظيم يمتد إلى يعقوبا.

(٢) أذربيجان: مملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال، وفيها قلاع كثيرة، وخيرات واسعة، وفواكه جمّة.

(٣) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد.

عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن الأرقم يحرسانه في صحن المسجد، فلما أصبح جاء الناس، فكشف عنه، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره بكى، فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن هذا لموطن شكر، فقال عمر: والله ما ذلك يبكيني، وبالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم.

وفي جمادى الأولى من السنة السادسة عشرة بلغ سعداً أن الأنطاق ملك المَوْصِل[1]، سار منها إلى تكريت[2]، ومعه جمع كثير من الروم والعرب، فسيّر إليها عبد الله بن المعتم حسب تعليمات أمير المؤمنين، فسار عبد الله إلى تكريت، وحصرها أربعين يوماً، ثمّ أرسل إلى العرب الذين مع الأنطاق يدعوهم إلى نصرته، ولمّا رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم تركوا أمراءهم ونقلوا متاعهم إلى السفن، فأرسلت تغلب، وإياد، والنمر إلى عبد الله بالخبر، وسألوه الأمان، وأعلموه أنهم معه، فأجابهم إلى ذلك، وأسلموا، فأرسل إليهم، إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا أخذنا أبواب الخندق، فخذوا الأبواب التي تلي دجلة، وكبّروا واقتلوا من قدرتم عليه. ونهل عبد الله والمسلمون، وكبّروا وكبّرت تغلب وإياد ونمر، وأخذوا الأبواب، فظنّ الروم أن المسلمين قد أتوهم من خلفهم مما يلي دجلة، فقصدوا الأبواب التي عليها المسلمون، وأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف الربعيِّين الذين أسلموا تلك الليلة، فلم يفلت من أهل الخندق إلاّ من أسلم من تلك القبائل.

## بناء الكوفة والبصرة

اتخذ سعد من المدائن قاعدة لأعماله بعد فتحها، وفي السنة السابعة عشرة، قدم وفد ممن نزلها إلى عمر، فلما رآهم سألهم عن تغير ألوانهم وحالهم، فقالوا: وخومة[3] البلاد غيّرتنا، فكتب إليه عمر: أن ابعث سلمان وحذيفة رائدين، فليرتادا

---

(١) الموصل: المدينة المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، وهي باب العراق ومفتاح خراسان، وسميت موصلاً؛ لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق.

(٢) تكريت: بفتح التاء، والعامة يكسرونها بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب.

(٣) وخومة البلاد: رداءتها، يقال: أرض وخِمَة ووخيمة وموخمة، أي لا ينجع كلؤها ولا توافق ساكنيها.

منزلاً برياً بحرياً، ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر. فأرسلهما سعد فاختارا الكوفة بالقرب من الحيرة، على شاطئ الفرات الغربي، فنزلا فصلّيا ودعوا الله أن يجعلها منزل الثبات، فلما جاءاه بالخبر، كتب إلى أمير المؤمنين عمر، وارتحل بالناس من المدائن حتى نزل الكوفة في المحرّم من تلك السنة، وخيّر المسلمين بينها وبين المدائن، فمن أعجبه المقام بالمدائن تركه فيها، ولما استقروا بها طابت أنفسهم، ورجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوّتهم، وتم بناؤها بالقصب كالبصرة، ولمّا أصابهما الحريق بعث سعد إلى عمر يستأذنه في البنيان باللَّبن، فكتب إليه قائلاً: افعلوا، ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة، وكتب إلى أهل البصرة وأميرها بمثل ذلك.

وقام بتخطيط الكوفة أبو هياج بن مالك، أما البصرة فقد اضطلع بتخطيطها عاصم بن دلف أبو الجرباء، فقاما بوضع المخططات الخاصة بالطرقات والأزقّة والدور، وأوّل شيء خُطَّ وبني مسجداهما، وقام في وسطهما رجل شديد النزع[1] فرمى في كل جهة بسهم، وأمر أن يبنى ما وراء ذلك، وجُعل أمام مسجد الكوفة صحن، وجعلوا على الصحن خندقاً لئلا يقتحمه أحد ببنيان، وبنوا لسعد داراً بحياله، وهي قصر الكوفة اليوم، وبلغ عمر أن سعداً قال وقد سمع أصوات الناس من الأسواق: سكِّنوا عني الصّويت، وأن الناس يسمّونه قصر سعد، فبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأمره أن يحرق باب القصر ثمّ يرجع، ففعل، فبلغ ذلك سعداً فاستدعى محمد بن مسلمة فأبى أن يدخل إليه، فخرج إليه سعد وعرض عليه نفقة فلم يأخذ، ثمّ أبلغه رسالة أمير المؤمنين، وأنه اتخذ قصراً جعله حصناً، بينه وبين الناس باب، وأمره أن ينزل منه ممّا يلي بيوت المال ويغلقه، وأمره أن لا يجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله، فحلف له سعد ما قال الذي قالوا، ورجع محمد من فوره إلى المدينة، فأبلغ عمر قول سعد، فصدّقه.

فليتدبر المسلمون اليوم هذه المواقف الرائعة، التي تدلّ على الإيمان العميق الذي يتمتع به أولئك العظماء من السلف الصالح، وفهمهم الثاقب لتعاليم

---

(١) شديد النزع: أي شديد الرمي.

الإسلام، وهم الذين كانت همّتهم الآخرة، والجهاد في سبيل الله تعالى، للظفر بمرضاته، لذلك أجاز لهم البنيان باللّبن على شرط القصد في البناء، وعدم الاستطالة، ثمّ أرسل إلى سعد من يحرق عليه باب قصر الإمارة، بعد أن نمت إليه أخبار عن بعض الوشاة والمنافقين، أنه يمنع المسلمين من الدخول عليه، فأين هؤلاء القادة من قادة المسلمين اليوم، ممّن يتخذون القصور الفارهة، ويجعلون بينهم وبين رعاياهم الحجب والحرّاس، ويجعلون أكبر همّهم بناء الملاهي والكازينوهات، ودور القمار؟!

## غزو فارس من البحرين

كان المسلمون في أول عهدهم يتنافسون فيما يقربهم إلى الله، فلما رأى العلاء بن الحضرمي نكاية سعد في الفرس، أراد أن يصنع في الفرس شيئاً، ولم ينظر في ما بين فضل الطاعة والمعصية، وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر، ونهى غيره، خوف الغرق، فندب العلاء الناس إلى فارس فأجابوه، وفرّقهم أجناداً، على أحدها الجارود بن المعلّى، وعلى الآخر سوار بن همام، وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوى، وخليد على جميع الناس، ثمّ عبروا البحر حتى أتوا إصطخر[1]، فخرج إليه جمع عظيم من الفرس، وحالوا بينهم وبين مراكبهم، فقام خليد في الناس فخطبهم، ثم قال: أما بعد، فإن القوم لم يدعوكم إلى حربهم، وإنما جئتم لمحاربتهم، والسفن والأرض لمن غلب، فاستعينوا بالصبر والصلاة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥]. ثم اقتتلوا فقتل من الفرس خلق كثير، وسار المسلمون يريدون البصرة، ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً، فأخذ الفرس عليهم الطرق، فعسكروا في مواقعهم وامتنعوا.

ولما بلغ عمر صنيع العلاء، أرسل إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جيش كثيف لنجدة المسلمين المحاصرين، فبعث جيشاً في اثني عشر ألف مقاتل، فيهم عاصم بن عمرو، وعرفجة بن هرثمة، والأشعث بن قيس، وعلى الجميع أبو سبرة بن

(١) إصْطَخْرُ: من أقدم مدن فارس كان فيها قبل الإسلام خزائن الملوك، وتخرج منها أئمة أعلام.

أبي رهم، فساروا على الساحل لا يلقون أحداً حتى وصلوا إلى إخوانهم وهم أحوج ما يكونون إليهم، فالتقوا مع المشركين وهزموهم، بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغنموا غنائم كثيرة، ورجعوا إلى البصرة سالمين.

## فتح الأَهْواز[1] وانتقاض الهرمزان

لما انهزم الهرمزان يوم القادسية، قصد خوزستان[2] فملكها، وكان يغير على أهل ميسان، من مناذر ونهر تيري، فاستمد عتبة بن غزوان سعداً، فأمدّه بنعيم بن مقرّن، ونعيم بن مسعود، وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان حتى يكونا بين البصرة وثغور الأهواز، ووجه عتبة بن غزوان سلمى بن القين، وحرملة بن مريطة فنزلا على ثغور البصرة بميسان، ودعوا من يقيم هنالك من العرب، ليكونوا مع المسلمين على قتال الفرس، فأجابهم بنو العم بن مالك، وكانوا ينزلون خوزستان قبل الإسلام، فاتّعد الأميران مع رئيسين من هؤلاء العرب على أن يثور أحدهما بمناذر والآخر بنهر تيري في يوم عيّناه لهما، فلما كان هذا اليوم أنشب جيشا البصرة والكوفة القتال مع الهرمزان، وبينما هو يقاتل، إذ جاءه الخبر بأخذ مناذر ونهر تيري، فانكسرت نفسه، وانهزم جيشه، فاتبعهم المسلمون إلى شاطئ دجيل، وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز، فلما رأى الهرمزان ما لا طاقة له به طلب الصلح، فصولح على ما دون مناذر ونهر تيري المأخوذين عنوة، وأقيمت فيها حامية.

وكان فتح الأهواز في السنة السابعة عشرة. ورجع باقي المسلمين إلى البصرة، ومعهم بنو العم بن مالك، فأرسل عتبة وفداً منهم إلى عمر، وفيهم الأحنف بن قيس، فلما وصلوا إليه طلب من كلّ منهم أن يرفع إليه حاجته، فطلب كلّ منهم خاصة نفسه إلا الأحنف بن قيس، فإنه أبى أن يطلب شيئاً، وخاطب أمير

---

(١) الأَهواز: هو اسم لكورة بأسرها، وإنما البلد الذي يغلب عليه هذا الاسم عند العامة اليوم فإنما هو سوق الأهواز، قال ياقوت: وكور الأهواز سوق الأهواز، ورامهرمز، وإيذج وعسكر مكرم، وتستر، وجنديسابور، وسوس، وسرق، ونهرتيري، ومناذر.

(٢) خوزستان: وهو اسم لجميع بلاد الخوز، وليس بخوزستان جبال ولا مال إلا شيء يسير يتاخم نواحي تستر وجنديسابور وناحية بإيذج وأصبهان، وأرضها أشبه شيء بأرض العراق.

المؤمنين في كلام بليغ، بيّن فيه ما وسّع الله عليهم من النعم، فأعجب به، وأحسن إلى أعضاء الوفد، وأقطعهم ممّا كان فيئاً لأهل كسرى وزادهم، ثم قال: هذا الفتى سيد أهل البصرة، وكتب إلى عتبة فيه بأن يسمع منه ويرجع إلى رأيه، وردّهم إلى بلدهم.

ثم لم يلبث الهرمزان أن نقض العهد، ومنع ما قبله، واستعان بالأكراد، فكثف جنده، فلما علم أمير المؤمنين بالخبر، كتب إلى سلمى بن القين ومن معه أن يسير إليه، وأمدّهم بحرقوص بن زهير السعدي، فسار وسار معه جيش البصرة حتى أتى جسر سوق الأهواز وعبره، وقاتل الهرمزان وألحق به الهزيمة، ففرّ إلى رامَهُرْمُزْ[1]، وفتح حرقوص سوق الأهواز، واتّسعت له بلادها إلى تُستَر[2]، ووضع الجزية، وكتب بالفتح إلى عمر، وأرسل إليه بالأخماس.

ثمّ إنّ الهرمزان راسل حرقوصاً في طلب الصلح، فاستشار أمير المؤمنين، فأجابه إلى ذلك، وأن يكون ما أخذه المسلمون بأيديهم، وأقام الهرمزان والمسلمون يحولون بينه وبين الأكراد، ونزل حرقوص جبل الأهواز، وكان يشق ذلك على الناس، فبلغ ذلك عمر فكتب إليه يأمره بنزول السّهل، وأن لا يشقّ على مسلم ولا معاهد.

## فتح رَامَهُرْمُز وتُسْتَر وأسر الهرمزان

لم يزل يزدجرد - وهو بمرو[3] - يثير أهل فارس، أسفاً على ما خرج من ملكهم، فكاتبوا أهل الأهواز، وتعاقدوا على النصرة، فجاءت الأخبار

---

(١) رَامَهُرْمُز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان.

(٢) تُسْتَرْ: أعظم مدينة بخوزستان، ينسب إليها نهر تستر.

(٣) مَرْوُ: المَرْوُ هي الحجارة البيض تُقتدح بها النار، ومَرْوُ الرُّوذ مدينة قريبة من مرو الشاهجان، بينهما خمسة أيام، أما مرو الشاهجنان فهي مرو العظمى أشهر مدن خراسان وقصبتها، وقد روي عن بريدة بن الحُصَيب أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بريدة، إنه سيبعث من بعدي بعوث، فإذا بعثت فكن في بعث المشرق، ثم كن في بعث خراسان، ثم كن في بعث أرض يقال لها مرو، إذا أتيتها فانزل مدينتها فإنه بناها ذو القرنين وصلّى بها عُزير، أنهارها تجري بالبركة، وعلى كل نقب منها ملك شاهر سيفه يدفع عن أهلها السوء إلى يوم القيامة»، فقدمها بريدة غازياً، وأقام بها إلى أن مات، وقبره بها إلى الآن معروف.

حرقوص بن زهير، والأمراء الذين كانوا معه، فكتبوا إلى عمر بالخبر، فكتب إلى سعد يأمره بإرسال جيش كثيف بقيادة النعمان بن مقرن ﷺ إلى الأهواز، وكتب إلى أبي موسى الأشعري ﷺ يأمره بذلك أيضاً، فسار النعمان بن مقرّن مع جيشه حتى وصل رامهرمز، ولما وصل جيش البصرة إلى الأهواز، نزلوا سوقها، وكانوا يريدون رامهرمز، فبلغهم خبر هزيمة الهرمزان وفراره إلى تستر، فساروا نحوه، وسار النعمان أيضاً وسار أمراء الأهواز، فاجتمعوا على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس، فحاصروهم أشهراً، وأكثروا فيهم القتل، ولما اشتد القتال على المسلمين قالوا للبراء بن مالك ﷺ: يا براء أقسم على ربك ليهزمنهم لنا، قال: اللهم اهزمهم لنا، واستشهدني، وكان مجاب الدعوة، فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم، ثم فرّوا إلى داخل المدينة، فحاصرهم المسلمون، فلما اشتدّ الحصار على أهل تستر، خرج رجل إلى النعمان يستأمنه على أن يدله على مدخل يدخلون منه، فأمّنوه، فدلّهم على مدخل الماء إليها، فندب الأمراء الناس إلى ذلك، فانتدب رجال من الشجعان والأبطال، فجاؤوا ودخلوا الماء سباحة، وذلك في الليل، وجاؤوا إلى الحراس فقتلوهم، وفتحوا الأبواب، وكبّر المسلمون، فدخلوا البلد.

أما الهرمزان فإنه لجأ إلى القلعة، فتبعه جماعة من الأبطال فأطافوا به، فنزل إليهم على حكم عمر، فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم، وممّن قتل تلك الليلة البراء بن مالك ﷺ.

ثمّ نقل الهرمزان إلى المدينة، وعليه كسوته من الديباج، وحليته، وتاجه وكان مكللاً بالياقوت، وكان أمير المؤمنين في المسجد متوسّداً برنسه[1]، فسأل الهرمزان عنه، قالوا: هو ذا. فقال: أين حرسه وحجّابه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب، قال: فينبغي أن يكون نبياً. قالوا: بل يعمل بعمل الأنبياء، ثم استيقظ عمر فنظر إليه متأملاً بعد أن عرفه، وقال: أعوذ بالله من النار، وأستعين بالله، الحمد لله الذي أذلّ بالإسلام هذا وغيره وأشباهه. ثمّ أمّنه مكرهاً..

(١) البرنس: هو كل ثوب رأسه منه ملتزق به.

## فتح السُّوس[1]

لما نزل أبو سبرة على السوس، وبها شهريار أخو الهرمزان، أحاط المسلمون بها، وناوشوهم القتال مرّات، كلّ ذلك يصيب أهل السوس في المسلمين، ثمّ مكّن الله للمسلمين فاقتحموا عليهم الأبواب بعد أن كسّروا سلاسلها وأغلاقها، وصالحوهم بعد أن فتحوا المدينة عنوة، ثمّ سار الجيش حتى نزل جُنْدَيْسَابُور[2]، فعثروا على جسد دانيال النبي عليه السلام، وكان هناك يستسقى بجسده، فاستأذنوا عمر فيه، فأمر بدفنه، فقام أبو موسى بتحويل النهر، وحفر له قبراً في وسطه، ثم أجرى النهر عليه من جديد، فهو في نهر السوس إلى يومنا هذا..

## وقعة نهاوند

لما افتتح المسلمون دار ملك أهل فارس في المدائن، وغيرها من تلك النواحي، وكان يزدجرد يتقهقر من بلد إلى آخر حتى صار إلى أصبهان[3] طريداً مبعداً، كتب إلى أهل نهاوند وما والاها من الجبال والبلدان، يستحثهم على قتال المسلمين، فاجتمعوا له بنهاوند، في جمع عظيم، فكتب سعد إلى عمر بالخبر، في الوقت الذي اشتكى فيه سعداً جماعة من أهل الكوفة، واتهموه عند عمر بأنه لا يعدل، ولا يحسن الصلاة، إلى غير ذلك من افتراءات وأكاذيب، فأرسل إلى سعد فجاء إلى المدينة، ولم يمنعه ما نزل بالمسلمين عن النظر في شكواهم، وحقّق في القضية فوجد سعداً بريئاً ممّا نسب إليه، ولكنه عزله وولى مكانه النعمان بن مقرّن، وكان محمد بن مسلمة قد استنفر أهل الكوفة لغزو نهاوند، ثم كتب عمر إلى حذيفة أن يسير من الكوفة بجنود منها، وكتب إلى أبي موسى أن يسير بجنود البصرة، وكتب إلى النعمان ما نصّه:

---

(١) السُّوس: بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي عليه السلام.

(٢) جُنْدَيْسَابورُ: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه.

(٣) أصبهان: وهي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وأصبهان اسم للإقليم بأسره.

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى النعمان بن مقرّن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله، وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلي من مئة ألف دينار، والسلام عليك، وأمره بالمسير إلى ماه[1] لتجتمع عليه الجيوش هناك، ثم يسير بهم إلى نهاوند، ثم كتب إلى عبد الله بن عبد الله خليفة سعد، على الكوفة يأمره باستنفار الناس للتوجه إلى النعمان. فلما اجتمعت الجيوش عند النعمان، أرسل بين يديه طليحة بن خويلد الأسدي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وعمرو بن أبي سلمة، يستكشفون الطريق، فأما عمرو بن أبي سلمة، فرجع من ليلته، فقيل له: ما أرجعك؟! فقال: لم أكن بأرض العجم، وقَتَلَتْ أرضٌ جاهلها، وقتل أرضاً عالمها، ثم رجع من بعده عمرو بن معد يكرب، وقال: لم نر أحداً وخفت أن يؤخذ علينا الطريق. واستمرّ طليحة في طريقه ولم يحفل برجوعهما، فسار بعد ذلك حتى انتهى إلى نهاوند، ودخل في العجم، وعلم من أخبارهم ما أحب، ثمّ رجع إلى النعمان فأخبره أنه ليس بينه وبين نهاوند شيء يذكره. فسار النعمان على تعبئته ومعه بقية الأمراء، حتى انتهوا إلى الفرس، فلما تراءى الجمعان، كبّر النعمان وكبّر المسلمون ثلاث تكبيرات، فزلزلت الأعاجم وأصابهم من ذلك رعب شديد. وبعد أن حطّوا رحالهم، أمر النعمان بإنشاب القتال، فقاتلوا بضعة أيام، وخاف المسلمون أن يطول عليهم الانتظار، فاتفقوا بعد المشورة على مكيدة، تقضي بأن ينشب القعقاع القتال، ثمّ يتظاهر بالهزيمة، فيخرج الفرس من حصونهم عن بكرة أبيهم، فيطبق عليهم المسلمون، وفعل ذلك القعقاع، وتظاهر بالهزيمة، ونجحت المكيدة حينما تبعته جموع الفرس، وهم يظنون أن المسلمين قد انهزموا، فمال عليهم المسلمون ميلة واحدة، واقتتلوا قتالاً لم يروا مثله في معركة من المعارك المتقدمة، واستشهد

(١) ماه: قصبة البلد، ومنه قيل: ماه البصرة وماه الكوفة وماه فارس، ويقال لنهاوند وهمذان وقم ماه البصرة.

النعمان خلال القتال، فسجّاه أخوه نعيم، وكتم خبر موته عن الجند، ودفع الراية إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، واستمرّ القتال إلى آخر النهار، ولما أرخى الليل سدوله انهزم الفرس، وتبعهم المسلمون، وكان الفرس قد قرنوا منهم ثلاثين ألفاً بالسلاسل، وحفروا حولهم خندقاً، فلما انهزموا وقعوا في الخندق في تلك الأودية، فهلك منهم بشر كثير، ولم يفلت منهم إلا الشريد، ثمّ لحق القعقاع بن عمرو فلول المنهزمين إلى همذان، وفتحها صلحاً.

ثمّ عادت السرية وعكف المسلمون على جمع الغنائم والأسلاب، وكان فيها سِفطين مملوءين جوهراً نفيساً من ذخائر كسرى، فبعث حذيفة بالبشارة والأخماس إلى عمر، وفيها السفطان المذكوران مع السائب بن الأقرع، فلما قارب المدينة، وجد عمر خارجاً يتنسّم الأخبار، فأخبره بما فتح الله على المسلمين، ثم أخبره باستشهاد النعمان، فاسترجع وبكى، ثم أخبره باستشهاد آخرين من أفناد الناس ممّن لا يعرفهم أمير المؤمنين، فجعل عمر يبكي ويقول: وما ضرّهم أن لا يعرفهم عمر؟ لكن الله يعرفهم وقد أكرمهم بالشهادة، وما يصنعون بمعرفة عمر، ثم أمر بقسمة الخمس، وبالسفطين إلى بيت المال، ثمّ رجع السائب إلى الكوفة، فأرسل عمر وراءه رسولاً، فلم يدركه إلاّ بالكوفة، فأعاده إلى المدينة، فلما رآه عمر قال: مالي ولك يا بن أم السائب؟ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ويحك، والله إن هو إلا نمت في الليلة التي خرجت فيها، فباتت ملائكة الله تسحبني إلى ذينك السفطين، وهما يشتعلان ناراً، يقولون: لنكوينك بهما، فأقول: سأقسمهما بين المسلمين، ثمّ أمره أن يقسمهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم.

فلله درّ أمير المؤمنين عمر، ما أكرمه، وما أعدله، وليتدبّر القادة الظلمة هذه المواقف الرائعة، ليتعلموا منها دروساً في سياسة الرعيّة.

ولمّا قدم سبي نهاوند إلى المدينة، جعل أبو لؤلؤة، فيروز غلام المغيرة بن شعبة، لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى، وقال: أكل عمر كبدي.

ولم تقم للفرس قائمة بعد هذه الوقعة، وعندئذٍ أمر أمير المؤمنين عمر،

بالانسياح في بلاد الفرس، عملاً بمشورة الأحنف بن قيس، فعيّن رؤساء الجنود لافتتاح البلاد، وعقد الألوية، فأرسل إلى أبي موسى الأشعري والي البصرة بعد المغيرة، وأمره أن يسير منها غير بعيد، ويقيم حتى يأتيه أمره، ثم أرسل إليه مع سهيل بن عدي بألوية الأمراء الذين سيسيحون في بلاد العجم، وهي على النحو التالي:

١. لواء للأحنف بن قيس، ووجهته (خُراسان) [١].

٢. لواء لمجاشع بن مسعود السلمي ووجهته (أزدشير خُرَّة وسابور) [٢].

٣. لواء لعثمان بن أبي العاص الثقفي ووجهته (إصطخر).

٤. لواء لسارية بن زنيم الكتاني ووجهته (فَسَا ودَارَاْبْجرْد) [٣].

٥. لواء لسهيل بن عديّ ووجهته (كَرْمَان) [٤].

٦. لواء لعاصم بن عمرو ووجهته (سِجِسْتان) [٥].

٧. ولواء للحكم بن عمير التغلبي ووجهته (مُكْرَان) [٦].

وكان مبدأ الانسياح في مستهل السنة الثامنة عشرة للهجرة.

## فتح أذربيجان والباب[٧]

لما افتتح نعيم بن مقرّن همذان ثم الريّ، وكان قد بعث بين يديه بكير بن

---

(١) خُراسان: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق، أزاذوار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان.

(٢) سابور: كورة مشهورة بأرض فارس تنسب إلى سابور الملك.

(٣) فَسا: مدينة بفارس بينها وبين شيراز أربع مراحل.
دَارَاْبِجِرْدْ: ولاية بفارس وموضع بنيسابور.

(٤) كَرْمَان: ولاية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان.

(٥) سِجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة في بلاد فارس.

(٦) مُكْران: وهي ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى.

(٧) الباب: ويقال لها باب الأبواب، وهي مدينة على بحر طبرستان، وهو بحر الخزر، وعليها سور من الحجارة.

عبد الله من همذان إلى أذربيجان، وأمدّه بسماك بن خرشة، لقيتهم جموع الفرس وعليهم إسفنديار أخو رستم، فاقتتلوا، فهزم الله المشركين، وأسر بكير إسفنديار، فقال له إسفنديار: الصلح أحب إليك أم الحرب؟ فقال: بل الصلح، قال: فأمسكني عندك، ثمّ جعل يفتح بلداً بلداً، ولم يلبث أن وصل إليه مدد نعيم، فسار الجميع إلى أذربيجان، فصالح أهلها على الجزية، وكتب بكير إلى عمر بذلك، فأمره أن يولّي عتبة بن فرقد على أذربيجان، ويسير بجيشه إلى الباب.

ثم سار سراقة بن عمرو إلى الباب، وعلى مقدمته عبد الرحمن بن أبي ربيعة، وقد سبقه بكير إليها وانتظره، فلما جاءت المقدمة وعليها عبد الرحمن كاتبه ملكها شهربراز ملك أرمينية واستأمنه ليأتيه، فأمنه، فجاءه وقال له:

إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة، ليست لهم أحساب ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعينهم، ولست من القبج في شيء ولا من الأرمن، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي، فأنا اليوم منكم، ويدي مع أيديكم، وصفوي معكم، وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم، والنصر لكم، والقيام بما تحبّون، فلا تذلوني بالجزية، فتوهنوننا لعدوكم.

فرفع عبد الرحمن أمره إلى سراقة فأجابه إلى طلبه وأعفاه ومن هم على رأيه من الجزية، أما من أقام ولم ينهض في قتال العدو، ففرض عليه الجزية، ثم كتب بذلك سراقة إلى عمر، فأجازه وحسّنه.

ولما فرغ سراقة من الباب سيّر السرايا إلى الجبال المحيطة بأرمينية، فوجّه بكير بن عبد الله إلى مُوْقَان[1]، وحبيب بن مسلمة إلى تفليس، وحذيفة بن أسيد إلى جبال اللّان، وسلمان بن ربيعة إلى الوجه الآخر، فافتتح بكير موقان، وكتب لهم كتاب أمان، ومات في غضون ذلك سراقة بن عمرو، واستخلف بعده عبد الرحمن بن ربيعة، فلما بلغ عمر ذلك أقرّه، وأمره بغزو الترك.

(١) مُوْقانُ: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلّها التركمان للرّعي فأكثر أهلها منهم.

# فتح خراسان

سار الأحنف بن قيس في جيش كثيف إلى خراسان قاصداً حرب يزدجرد، فافتتح هراة عنوة، ثمّ سار إلى مرو الشاهجان، فخرج منها يزدجرد ولحق بمرو الروذ، وكتب يزدجرد إلى ملوك الترك والصُّغد[1] والصين يستمدهم، ففتح الأحنف مرو الشاهجان واستخلف عليها، ثم سار نحو مرو الروذ، فخرج يزدجرد منه، ولحق ببلخ، ولما دخل الأحنف مرو الروذ أتته أمداد أهل الكوفة، فسيّرهم أمامه إلى بلخ، فساروا حتى التقوا بيزدجرد هناك، وقاتلوه فهزموه حتى عبر النهر.

فرجع الأحنف إلى مرو وأقام بها، ولم يدرك الوقعة، وأرسل إلى عمر بالفتح والأخماس، وأخبره بعبور يزدجرد النهر، فنهاه عمر عن العبور خلفه.

ولما وصل رسول يزدجرد إلى خاقان ملك الترك لم يحتفل بأمره، فلما عبر يزدجرد النهر ودخل في بلاده، تعيّن عليه إنجاده في شرع الملوك، فسار معه خاقان الأعظم، فرجع إلى بلخ واسترجعها، حتى نزلوا على الأحنف بمرو الروذ، فجعل الأحنف الجبل وراءه وجعل من النهر خندقاً أمامه، وجاءت الأتراك والفرس في جمع عظيم، وحدثت مبارزات قتل فيها بعض أشراف الترك، فتشاءم خاقان، وانسحب بجيشه[2]، وقد كان يزدجرد ترك خاقان مقابل المسلمين بمرو الروذ، وانصرف إلى مرو الشاهجان فحاصر حاميتها واستخرج خزائنه التي كان دفنها بها، وأراد أن يرحل بها إلى فرغانة أو الصين، فنصحه بعض أولي النهى من قومه قائلين: إنا نرى أن نصانع هؤلاء القوم فإن لهم ذمة

---

(١) الصُّغْد: وهي كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل: هما صُغدان: صغد سمرقند، وصغد بخارى، وهي قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين، وهي من أطيب أرض الله.

(٢) عندما بلغ الأحنف خبر انصراف الترك، قال له المسلمون: ما ترى في اتباعهم؟ فقال: أقيموا بمكانكم ودعوهم وقد أصاب الأحنف في ذلك، فقد جاء في الحديث: «اتركوا الترك ما تركوكم». وقد ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وديناً يرجعون إليه، فنكون في بعض هذه البلاد وهم مجاورينا، فهم خير لنا من غيرهم. فأبى عليهم كسرى ذلك، ثم بعث إلى ملك الصين يستغيثه ويستنجده، فجعل ملك الصين يسأل عن صفة هؤلاء القوم الذين قد فتحوا البلاد، وقهروا رقاب العباد، فجعل يخبره عن صفتهم، وكيف يركبون الخيل والإبل، وماذا يصنعون، وكيف يصلّون، فكتب معه إلى يزدجرد: إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليّ، ولكن هؤلاء الذين وصف لي رسولك صفتهم، لو يحاولون الجبال لهدّوها، ولو جئت لنصرك أزالوني ما داموا على ما وصف لي رسولك، فسالمهم وارض منهم بالمسالمة.

ثم لحق كسرى بخاقان ملك الترك، وجاء أهل خراسان إلى الأحنف فصالحوه، ودفعوا إليه خزائن يزدجرد التي أخذوها منه قهراً، وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة، واغتبطوا بملك المسلمين حيث إن الرجل منهم لم يكن مكلفاً إلا بدفع شيء قليل جزاء حمايته، وبعد ذلك ماله وعرضه ودمه كحرمة مال المسلم وعرضه ودمه، ما دام في ذمة المسلمين وعهدهم.

ولما وصل خبر الفتح إلى عمر، جمع الناس وخطبهم، وقرأ عليهم كتاب الفتح، وحمد الله في خطبته على إنجاز وعده، ثم قال: ألا وإن ملك المجوسية قد هلك، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم، لينظر كيف تعملون، فلا تبدّلوا فيستبدل الله بكم غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم.

## فتح فَسَا ودَارَابْجِرْدْ

قصد سارية بن زنيم فسا، ودارابجرد، حتى انتهى إلى عسكرهم، فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء الله، ثم إنهم استمدّوا من بقربهم من أكراد فارس، فدهم المسلمين أمر عظيم، وأتاهم الفرس من كل جانب، فرأى عمر فيما يرى النائم تلك الليلة ما عليه المسلمون، فنادى من الغد: الصلاة جامعة، حتى إذا كان في

الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم، وكان ابن زنيم والمسلمون بصحراء، إن أقاموا فيها أحيط بهم، وإن استندوا إلى جبل من خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد، فقام عمر فقال: يا أيها الناس إني رأيت هذين الجمعين، وأخبر بحالهما، وصاح وهو يخطب: يا سارية بن زنيم الجبل الجبل، ثمّ أقبل عليهم وقال: إن لله جنوداً ولعل بعضها أن تبلغهم، فسمع سارية ومن معه الصوت، فلجؤوا إلى الجبل، ثم قاتلوهم من وجه واحد، فهزمهم الله،وأصاب المسلمون غنائمهم، وأرسل إلى عمر بالفتح والخمس، ومعه سفط فيه جوهر، فلما رآه عمر لم يقبله، وردّه ليباع ويقسم على المقاتلين، وسأل أهل المدينة رسول سارية هل سمعوا شيئاً يوم الواقعة؟ قال: نعم، سمعنا: يا سارية الجبل الجبل، وقد كدنا نهلك، فلجأنا إليه، ففتح الله علينا..

obeikandl.com

## ٤ـ تدوينه الدواوين:

استشار أمير المؤمنين عمر ﷺ المسلمين في مسألة العطاء، وقد كثر المال وفاض، فأشار عليه علي بن أبي طالب ﷺ، بأن يقسم ما اجتمع إليه من مال، ولا يمسك منه شيئاً، وأشار عثمان ﷺ إلى كثرة المال، وأنه يسع الناس جميعاً. ولفت نظر عمر إلى ما يمكن أن يحدث من اضطراب، بحيث لا يعرف من أخذ ممن لم يأخذ من العطاء، فأشار عليه الوليد بن هشام بن المغيرة بتدوين الدواوين، وكان قد رأى ملوك الشام يفعلون ذلك، لضبط عمليات الصرف وتنظيمها، فأمر عمر بكتابة الدواوين.

وقد جعل عمر معياره في تقسيم العطاء، الإسلام، وما قدّمه المرء فيه من بلاء، سواء عن طريق السبق أم الهجرة إليه، أم الجهاد في سبيل إعلاء رايته، فضلاً عن القرب والقرابة من رسول الله ﷺ ففرض لكل واحد من المسلمين بقدر تحصيله من هذه الأسهم العظيمة، ولم يكن للقرابة أو النسب أي شأن يذكر في نفس أمير المؤمنين، إلا ما كان من قرابة رسول الله ﷺ، فقد جعل أهل بيت النبي ﷺ في صفحة الصدارة من الديوان، وآثرهم على نفسه، فعندما استشار أصحاب رسول الله ﷺ حول مسألة العطاء، سألهم فيمن يبدأ؟ فقالوا: بنفسك، قال: لا ولكني أضع نفسي حيث وضعها الله، وأبدأ بآل رسول الله ﷺ، ففعل، ثم طلب إلى عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم أن يكتبوا الناس على منازلهم في الديوان، وأن يبدؤوا ببني هاشم في الدعوة، ثم الأقرب فالأقرب برسول الله ﷺ، فإذا ما استوى الناس في القرابة، قدّم أهل السابقة، وفرض لأهل الديوان، ففضّل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض، وكان أبو بكر قد سوّى بين الناس في القسم، فقيل لعمر في ذلك، فقال: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه.

وحين أقبل إليه قومه بنو عدي، يعتبون عليه رفضه ما أشار عليه الصحابة، من الابتداء بنفسه في العطاء، قال لهم موبخاً: بخ بخ بني عديّ، أردتم الأكل على ظهري وأن أهب حسناتي لكم! لا والله حتى تأتيكم الدعوة، وأن يطبق عليكم

الدفتر، إن لي صاحبين سلكا طريقاً، فإن خالفتهما خولف أبي، والله ما أدركنا الفضل في الدنيا وما نرجو الثواب على عملنا إلا بمحمد ﷺ، فهو شرفنا وقومه أشرف العرب، ثم الأقرب فالأقرب، والله لئن جاءت الأعاجم بعمل وجئنا بغير عمل، لهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فإن من قصّر به عمله لم يسرع به نسبه[1].

وحين فرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف، قال له ابنه عبد الله بن عمر: فرضت لي ثلاثة آلاف وفرضت لأسامة في أربعة آلاف وقد شهدت ما لم يشهد أسامة؟!

قال عمر: زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وكان أبوه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك[2].

## بعض أخباره ومناقبه

ولد أمير المؤمنين عمر في السنة الثالثة عشرة من ميلاد رسول الله ﷺ، وتربى على الشهامة والنجدة والحميّة الجاهلية، ولما جاء الإسلام، كان من أشدّ المعارضين له، فلما هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة خوف الفتنة، منّ الله عليه بالإسلام، ببركة دعوة رسول الله ﷺ:

«اللهم أعز الإسلام بعمر»، فأتى دار الأرقم بن أبي الأرقم، حيث كان رسول الله ﷺ يتخفّى مع أصحابه، وأسلم بين يديه، فكبّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد، فقال عمر: يا رسول الله، ألسنا على الحق؟! قال: «بلى»، قال عمر: ففيم الاختفاء؟ فخرجوا صفين، عمر في أحدهما، وحمزة في الآخر، حتى دخلوا المسجد، فنظر المشركون إلى عمر وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة شديدة، فسمّاه رسول الله ﷺ الفاروق يومئذٍ. وصار بعد ذلك عمر من أشدّ أنصار الإسلام، حتى قال عبد الله بن مسعود: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

وقال: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمامته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصل إلى البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٣٦، وابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ٢/ ٩٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٣٧، وابن سعد: الطبقات الكبرى، ٣/ ٢٩٧.

حتى تركونا وخلوا سبيلنا.

وحسب عمر فخراً، أنه كان الصحابي الوحيد الذي هاجر إلى المدينة علانية، وليس ذلك فحسب، حيث بلغت به الجرأة أن يقف أمام أساطين قريش وشياطينها متحدياً، ليخبرهم بهجرته، غير مبال بسطوتهم.

ومن الذي يشهد له بذلك؟! إنه عليّ بن أبي طالب، فيما رواه ابن عساكر قال: ما علمت أحداً هاجر إلا متخفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة، تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضىٰ في يده أسهماً، واختصر عنزته (عصاه)، وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها، فطاف سبعاً، ثم صلى ركعتين خلف المقام، ثم أتى حِلَقَهم واحدة واحدة، فقال: شاهت الوجوه، من أراد أن تثكله أمه، ويؤتم ولده، وترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه منهم أحد.

## ورعه وتقواه وسهره على راحة الرعية :

كان عمر من التقوى في عليائها وقممها السامقة، وكان عفيف النفس، وأخباره في هذا الصدد، أكثر من أن تحصى، وممّا يشهد بعفته قوله: إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة مال اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإن أيسرت قضيت.

ورغم كثرة الأموال التي كانت في عهدته، إلا أنه لم يكن يستأثر بشيء منها، وكان يضيق على نفسه بالنفقة، فكان يأكل الخلّ والزيت ـ وخاصة في عام الرمادة ـ ويطعم الناس طعام الملوك، حتى اسودّ لون جلده، ورق عوده، ووسّع على الناس في العطاء، «ونزل نفسه بمنزلة الأجير كآحاد المسلمين في بيت المال[1]، وعندما قال له رجلٌ: يا أمير المؤمنين، لو وسّعت على نفسك في النفقة من مال الله تعالى، قال: والله ما أراك أردت بها الله، وما أردت بها إلا مقاربتي، أتدري ما مثلي ومثل هؤلاء؟ كمثل قوم كانوا في سفر، فجمعوا منهم

(١) ابن الأثير: أسد الغابة، ٤/ ٧١.

مالاً، وسلّموه إلى واحد ينفقه عليهم، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم[1].

ولما بويع بالخلافة، صعد المنبر، فخطب الناس، ثم قال: إنما مثل العرب مثل جمل آنف[2] اتبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، وأما أنا فوربّ الكعبة لأحملنكم على الطريق.

اجتمع علي وعثمان مع عمر في خلافته، يتعاهدون إبل الصدقة، فجلس عثمان في الظلّ، وقام عليّ على رأسه يملي عليه ما يقول عمر، وعمر قائم في الشمس في يوم شديد الحرّ عليه بردتان سوداوان، متزر بواحدة، وقد وضع الأخرى على رأسه، وهو يتفقد إبل الصدقة، فيكتب ألوانها وأسنانها، فقال علي لعثمان: أما سمعت قول ابنة شعيب في كتاب الله ﷻ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأشار بيده إلى عمر فقال: هذا هو القوي الأمين.

ولما رأى المسلمون ما بعمر من ضيق وشدّة، جاؤوا إليه وفيهم حفصة وعبد الله، فقالوا: لو أكلت طعاماً طيباً لكان أقوى لك على الحق، قال: أكلكم على هذا الرأي؟ قالوا: نعم. قال: قد علمت نصحكم، ولكني تركت صاحِبَيَّ[3] على جادة، فإن تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل[4].

وكان عمر رغم شدته، رفيقاً برعيته، أرحم بها من الأم على وليدها، وليس أدل على ذلك من قيامه على مصالح رعيته، يباشر أكثرها بنفسه، لإحساسه بجسامة المسؤولية الملقاة على عاتقه، من ذلك ما أُثِرَ عنه من تفقده لأحوال المسلمين ليلاً دون أن يزعج أحداً من جنده أو معاونيه؛ وأخباره في ذلك كثيرة جداً، منها ما رواه مولاه أسلم، حيث قال: خرج عمر إلى حرة واقم[5]، وأنا

---

(١) ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص ٤١.

(٢) الجمل الآنف: هو الذي يأنف من أن يضرب فيعطي ما عنده من السير بدون طلب.

(٣) يعني بهما رسول الله ﷺ وأبا بكر.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات، ٣/ ٣١٣.

(٥) حرّة واقم: هي إحدى حرّتي المدينة، وهي الشرقية.

معه، حتى إذا كنا بصرار، إذا نار تسعر، فقال: يا أسلم إني أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا إليهم، فهرولنا حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان لها، وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون (يصيحون). فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول: يا أصحاب النار. قالت: وعليك السلام. قال: أدنو؟ قالت: ادن بخير أو دع. فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد.

قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاعون؟ قالت: من الجوع. قال: وأيّ شيء في هذه القدر؟ قالت: ما لي ما أسكتهم به حتى يناموا، فأنا أعلّلهم وأوهمهم أني أصلح لهم شيئاً حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر. قال: رحمك الله، ما يدري بكم عمر؟ قالت: يتولّى أمرنا ويغفل عنا؟! فأقبل عليّ وقال: انطلق بنا. فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق وجراب شحم، فقال: احمله على ظهري. قال: أسلم: فقلت: أنا أحمله عنك، مرتين أو ثلاثاً. فقال في آخر ذلك: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك؟ فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها: ذري علي وأنا أحرّك لك. وجعل ينفخ تحت القدر، وكان ذا لحية عظيمة، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج، ثم أنزل القدر، فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم قال: أطعميهم وأنا أسطح لك، فلم يزل حتى شبعوا، ثم خلى عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين، فيقول: قولي خيراً فإنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتيني هناك إن شاء الله. ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع، فجعلت أقول له: إن لك شأناً غير هذا، وهو لا يكلمني، حتى رأى الصبية يضحكون ويصطرعون، ثم ناموا وهدؤوا، فقام وهو يحمد الله، ثم أقبل علي فقال: يا أسلم، الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى رأيت ما رأيت منهم.

وروى طلحة بن عبيد الله قال: خرج عمر ليلة في سواد الليل، فدخل بيتاً، فلما أصبحت ذهبت إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة، فقلت لها: ما بال

هذا الرجل يأتيك؟ فقالت: إنه يتعاهدني مدّة كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى، فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثرات عمر تتبع؟!(١).

وخرج ليلة برفقة مولاه أسلم إلى ظاهر المدينة، فلاح لهما بيت شعر، فقصداه، فإذا امرأة تمخض وتبكي، فسألها عمر عن حالها فقالت: أنا امرأة عربية وليس عندي شيء، فبكى عمر وعاد يهرول إلى بيته، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: هل لك في أجرٍ ساقه الله إليك؟ وأخبرها الخبر، فقالت: نعم. فحمل على ظهره دقيقاً وشحماً، وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة وجاءا، فدخلت أم كلثوم على المرأة، وجلس عمر مع زوجها - وهو لا يعرفه - يتحدّث، فوضعت المرأة غلاماً فقالت أم كلثوم: يا أمير المؤمنين، بشر صاحبك بغلام. فلما سمع الرجل قولها استعظم ذلك وأخذ يعتذر إلى عمر، فقال عمر: لا بأس عليك، ثم أوصلهم بنفقة وما يصلحهم وانصرف(٢).

## مقتل أمير المؤمنين عمر

لم يصب المسلمون في العصر الأول بمصيبة بعد وفاة رسول الله ﷺ، أعظم من قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، قتله غلام مجوسي اسمه أبو لؤلؤة، كان للمغيرة بن شعبة؛ وكان نصرانياً، وكان قد اشتكى لأمير المؤمنين كثرة خراجه، فسأله عمر: كم خراجك؟ قال: درهمان كل يوم. فسأله عن صنعته، فلما علم أنه يجيد النجارة والحدادة، وجد أن خراجه ليس بكثير، ثم قال له عمر: بلغني أنك تقول: لو أردت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت، قال: نعم. قال: فاعمل لي رحى. قال: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدّث بها من بالمشرق والمغرب.

ثم انصرف عنه وقال: لقد توعدني العبد الآن، ثم انصرف عمر إلى منزله، فلما كان الغد جاءه كعب الأحبار فقال له: يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت بعد

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ١٣٥، وابن الجوزي: صفة الصفوة، ١/ ٢٨١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ١٣٦، وابن الجوزي: صفة الصفوة ١/ ٢٨٢ .

ثلاث ليال! قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب التوراة! ولم تكد تمضي الليلة الثالثة - بزعم الرواية - حتى قتل أمير المؤمنين غيلة وهو في الصلاة.

هذا ما رواه المؤرخون - بشيء من التفصيل - حول مقتل أمير المؤمنين عمر، لكن غاب عن أذهان الكثيرين، أن ثمة حلقة مفقودة في هذه القضية، حيث ظهرت فيما بعد الأصابع الخفية في هذه الجريمة النكراء، تلك هي أصابع اليهودي الماكر (كعب الأحبار)، الذي كان يتظاهر بالإخلاص للخليفة، فينقل إليه نبوءات التوراة الكاذبة عن مقتله بعد ثلاثة أيام، وما عهدنا الكتب السماوية تبين عن مقتل أحد، وتحدّد وقت التنفيذ، ولكنها أساليب اليهود في المكر والخداع، فالواقع يؤكد أن (كعب الأحبار) كان على علم بمؤامرة الهرمزان وأبي لؤلؤة، وعلى علم بموعد التنفيذ، فتظاهر أن التوراة تنبئ عن مقتل الخليفة ليبعد الشك عن نفسه لو اتسع التحقيق وكشفت المؤامرة[1].

وحين نفذت، الجريمة اكتفى عبد الله بن عمر بأخذ الثأر من الهرمزان وجفينة النصراني، وأبو لؤلوة منفذ الجريمة قتل نفسه[2]، ولم يجر تحقيق ما بين الفرس واليهود والنصارى الذين كانوا حاقدين على العرب عامة وعلى الخليفة خاصة، لتظهر أصابع الإجرام اليهودي، ونجا كعب الأحبار، بينما أصيب الإسلام بأول ثلمة لم ترتق حتى يومنا هذا[3].

أخرج البخاري عن عمرو بن ميمون في هذا الصدد، أنه قال: إني لقائم ما بيني وبينه[4] إلا عبد الله بن عباس، غداة أصيب، وكان إذا مرّ بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم يرَ فيهن خللاً تقدم فكبّر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل،

---

(١) محمد هيكل: الفاروق عمر، ٢/ ٣١٠، بتصرّف.

(٢) يبدو أن مؤامرة قتل أمير المؤمنين عمر قد نفذت بإحكام بواسطة هؤلاء الثلاثة، ويقال: إن أبا لؤلؤة مرّ بالهرمزان وبيده الخنجر الذي طعن به عمر، فتناوله من يده وأطال النظر فيه، ثم رده إليه، ومعه جفينة النصراني، فلما طعن عمر من الغداة، قال عبد الرحمن بن أبي بكر لعبيد الله بن عمر: إني رأيت هؤلاء الثلاثة يتناجون، فلما رأوني افترقوا وسقط منهم هذا الخنجر. ابن خلدون: تاريخ، ٢/ ٥٧٠.

(٣) محمد حسين هيكل: الفاروق عمر، ٢/ ٣١٩، بتصرف.

(٤) أي عمر.

أو نحو ذلك في الركعة الأولى، حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبّر فسمعته يقول: قتلني الكلب، حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين، طرح عليه بُرنُساً، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله، سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة.

وذكر ابن أبي الحديد الشيعي المعتزلي أن أمير المؤمنين عمر لمّا طعن، انصرف الناس وهو في دمه مسجّى، لم يصلّ الفجر بعد، فقيل: يا أمير المؤمنين! الصلاة، فرفع رأسه وقال لا ها الله إذن، لاحظّ لامرئ في الإسلام ضيع صلاته، ثم وثب ليقوم، فانبعث جرحه دماً، فقال: هاتوا لي عمامة، فعصب بها جرحه، ثمّ صلى وذكر، ثم التفت إلى ابنه عبد الله وقال: ضع خدي إلى الأرض يا عبد الله! قال عبد الله: فلم أعج بها وظننت أنها اختلاس من عقله، فقالها مرّة أخرى: ضع خدي إلى الأرض يا بني، فلم يفعل، فقال الثالثة: ضع خدي إلى الأرض لا أمّ لك، فعرف عبد الله أنه مجتمع العقل، ولم يمنعه أن يضعه هو إلا ما به من الغلبة، فوضع خده إلى الأرض حتى نظر إلى أطراف لحيته خارجة من أضعاف التراب، وبكى حتى لصق الطين بعينه، فأصغى عبد الله ليسمع ما يقول، فسمعه يقول: يا ويل عمر وويل أم عمر إن لم يتجاوز الله عنه[1].

وروى البخاري أن عمر قال لابن عباس: انظر من قتلني. فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصَّنَعُ. قال: نعم. قال: قاتله الله لقد أمرت به معروفاً والحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدَّعي الإسلام.

فاحتمل إلى بيته فانطلق الصحابة معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذٍ، فقائل يقول: لا بأس، وقائل يقول: أخاف عليه، فأتي بنبيذ فشربه فخرج

(١) المفيد: الفصول المختارة، ١/٥٨، من آخره، وابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ١٢/١٩٣، والصدوق: معاني الأخبار، ص ٤١٢.

من جوفه، ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميّت، فدخلوا عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ، وقدَم في الإسلام ما قد علمت ثم وليتَ فعدلت، ثمّ شهادة، قال: وددت أن ذلك كفافٌ لا عليّ ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمسّ الأرض، فلم يثنه ما هو فيه من الألم أن يقوم بواجبه في الدعوة والتوجيه والإرشاد، فقال: ردّوا عليّ الغلام، ثم قال: ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك. يا عبد الله بن عمر انظر ماذا علي من الدّين، فحسبوه، فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه. قال: إن وفّى له مال آل عمر فأدّه من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تفِ أموالهم، فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، فأدِّ عنّي هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلّم واستأذن، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنّه به اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت. قال: الحمد لله ما كان شيء أهمّ إلي من ذلك، فإذا قضيت فاحملوني، ثم سلم، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت فأدخلوني، وإن ردّتني، ردوني إلى مقابر المسلمين.

ويضيف عمرو بن ميمون فيما رواه عنه البخاري فيقول: وجاءت حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولَجَتْ داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلِفْ. قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمى علياً، وعثمان والزبير، وطلحة، وسعداً، وعبد الرحمن، وقال: يَشْهَدُكُمْ عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء، فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك، وإلاّ فليستعن به أيكم أمِّر، فإنّي لم أعزله عن عجز ولا خيانة.

ثم أوصى الخليفة من بعده بالمهاجرين الأولين والأنصار والمسلمين عامّة، كما أوصى كلّ واحدٍ منهم إن ولي أمر المسلمين، أن لا يحمل أقاربه على رقاب الناس، ولم يزل يذكر الله تعالى ويديم الشهادة إلى أن توفي.

وحينما توفي عمر، وقد أحاط به الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه، وكان ابن عباس بينهم، فإذا هو برجل قد أخذ بمنكبه من ورائه، فالتفت إليه فإذا هو علي، فترحم على عمر، وقال: ما خلّفت أحداً أحبّ إلي، أن ألقى الله بمثل عمله منك. وأيم الله! إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أني كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»، فإن كنت لأرجو، أو لأظن أن يجعلك الله معهما[1].

ولما قبض خرج به الصحابة يمشون حتى وصلوا إلى حجرة أم المؤمنين عائشة، فسلّم عبد الله بن عمر، قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت: أدخلوه، فأدخِلَ فوضع هنالك مع صاحبيه.

## خلاصة هذا الفصل

من الملاحظ أن هذه المرحلة اتّسمت بكثرة الفتوحات وامتدادها في بلاد فارس والشام. في الوقت الذي سمح فيه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه للمرتدين ممن عاد إلى الإسلام وحَسُنَ إسلامه، بالمشاركة في الفتوحات، بعد أن استحكم الإيمان في قلوبهم. أما الحدث الأبرز في خلافة عمر، فهو يتمثل في موقعة القادسية الخالدة، وفتح مدائن كسرى، وزوال ملك فارس، وفرار يزدجرد إلى ما وراء النهر، وفتح دمشق وغيرها من مدن الشام وضم بيت المقدس ومسرى رسول الله ﷺ إلى عرين الإسلام. كما امتازت هذه المرحلة بتدوين الدواوين وفرض العطاء، ومنع العطاء عن المؤلفة قلوبهم.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، والبخاري في المناقب، انظر أيضاً أسد الغابة، ٤/ ٧٧.